المركز القومى للترجمة

هارى سينت فيلبى

المشروع القومى للترجمة

قلب الجزيرة العربية

سجل الأسفار والاستكشاف

الطبعة الثانية

ترجمة وتقديم : صبرى محمد حسن
مراجعة : رءوف عباس

الجزء الأول

2/607

القســـم الأكبر من هذا الكتاب يغطى الفترة من شهر يونيو من عام 1918 الميلادى إلى شهر أغسطس من العام نفسه، باستثناء رسالتين كتبهما فيلبى فى فترة متأخرة، فى عام 1921-1922 الميلادى.

وتــرجع الأهمـية البالغة لتلك الرسائل إلى أنها ترسم – من ناحية – صورة حية لفراسة فيلبى ونفاذ بصيرة بريطانيا فى مطلع علاقتها بابن سعود، وتعد – من ناحية ثانية – قبسات نورانية قيمة من إلمام فيلبى إلمامًا وثيقًا ودقيقًا بالشئون العربية، كما توضح – من ناحية ثالثة – رأيه الشخصى والصريح فى أولئك الناس الذين تعرّفهم تعرفًا جيدًا ووثيقًا، هذه الرسائل تكشف عن رغبة متقدة داخل فيلبى فى استكشاف المناطق المجهولة، وإبراز مشاعر الود والاحترام والولاء التى كان يكنها لابن سعود. أهم من كل ذلك أن تلك الرسائل ترسم صورة مبهرة للسعودية فى بداية تأسيسها، ومع ذلك يظل كتاب "قلب الجزيرة العربية" موضوع هذا العرض بمثابة حجر الزاوية من بين كل أعمال وكتابات فيلبى.

تصميم الغلاف: عبد العزيز السماحى

الفصل الأول

عتبة الجزيرة العربية

١- من البحرين إلى العقير

ظَهِيرة اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر من عام ١٩١٧ الميلادى لم تستطع الموجات الصغيرة تحريك سطح خليج البحرين ، عندما تَرَكَنا الزورق البخارى التابع للباخرة لورانس التابعة لبحرية صاحب الجلالة لحال سبيلنا عند المدخل المؤدى إلى القنال الضيق الذى يغلق الأعشاب المرجانية تحت سطح الماء ، ليعود مسرعًا إلى السفينة الجيدة التى أقلتنا إلى هذا المكان البعيد عن البصرة . كان البحر متوردًا وهجًا على الجانبين محذرًا الملاحين من أخطاره الخبيئة ، وكان القنال أخضر اللون ، ومن خلفنا كان هامش السلامة الضيق ، هو البحر الهائج المائج . وبقينا هادئين بلا حراك . فى حين كان الشراع يرفرف بكامل امتداده ليحتضن النسيم ؛ وفى مؤخرتنا كان بيرق الأراضى الوهابية يرفرف متكاسلاً ، بلونه الأخضر الكالح وحدوده البيضاء ، وقد انعكست صورته على صفحة البحر الأخضر الكالح . كانت البحرين من ورائنا ، الموقع الأخير من مواقع الحضارة ؛ وكانت الجزيرة العربية من أمامنا . وعن يميننا وعن شمالنا كتل جبال الظهران[١] وجبال دخان[٢] الصخرية ، كانت الأولى على الأرض الأم فى اتجاه الشمال الغربى ، فى حين كانت الأخرى ناحية الجنوب الغربى على جزيرة البحرين، وكلها عبارة عن تلال قليلة الارتفاع ولكنها تبدو لنا عالية ، وبوابات مناسبة للمجهول الذى خَلْفَها .

كانت مركبتنا عبارة عن دهو(*) صغير ، وكنا نحن الثلاثة ومعنا طاقم البحارة المكون من سبعة أفراد ، يرأسهم القبطان على الذى استطاع فى سفن مماثلة لهذا الدهو – ولكن تكبره – أن يتحاشى أخطار المحيط فى أسفاره التى وصلت إلى زنزبار . وقد التقيت كثيراً من البدو فى وسط الجزيرة العربية ، الذين حدثونى فيه عن زمن تحدثوا فيه عن ثقتهم بالمستقبل فى البحر وهم يبحثون عن لقمة العيش التى تعذر عليهم كسبها من البر . وهناك كثير من العتوب (العتبان) ، وكثير أيضاً من الدواسر ، وآخرون كثيرون ينزلون إلى البحرين للعمل فى أثناء موسم صيد اللؤلؤ ؛ وكان البعض منهم يرتاد حياة البحر ليكسب ما يستطيع به شراء الإبل والزواج .

وملأ النسيم العابر شراعنا فترة وجيزة من الزمن فى فترة ما بعد الظهيرة ، ولكنه خيب أملنا قبل غروب الشمس ، واقتربنا من جرف ناتئ داخل البحر كى نلقى مراسينا على تلك الجزيرة الموازية لجبل الدخان . وعند منتصف الليل استأنفنا إبحارنا إلى الأمام مرة ثانية ومن خلفنا نسيم لطيف ، استمر معنا حتى وقت الظهيرة ، حيث وقفنا بلا حراك على مرمى البصر من برج المراقبة فى العقير . وفى ظل الظروف المعتادة يقطعون المسافة بين البحرين والعقير فى ثمانى ساعات ، فى حين كانت قد مضت علينا ست وعشرون ساعة بعد أن غادرنا السفينة لورانس التابعة لبحرية صاحب الجلالة ، ولم يعاودنا النسيم مرة ثانية إلا بعد الساعة الثانية مساء . ومع ذلك بدأنا نبحر إبحاراً منتظماً ، وسرعان ما وصلنا إلى لسان الحضض الخفيض الذى يفصل ميناء العقير العميق عن الخليج الضحل الذى تنتشر على أرضه الشعاب المرجانية .

هذا هو عمود غير منتظم موضوع فى البحر بعيداً عن الطرف الجنوبى لذلك اللسان، ويستعمل إشارة لإرشاد السفن إلى الميناء الذى تحولنا داخلين إليه أمام ضربة مفاجئة جاءتنا من اتجاه الجنوب(٢) ، وراح كل لوح من الألواح الخشبية وكل حبل من الحبال يتوتر ويُزَيِّق ونحن نتسابق وصولاً إلى الرصيف . وأخيراً وبعد سباق دام اثنتين وثلاثين ساعة ، وبينما كانت الشمس تغرب خلف التلال الرملية على الأرض الرئيسية وصلنا إلى هدفنا ووقفنا على أعتاب الأرض الوهابية .

(*) الدهو : قارب يستعمله البحار العربى انظر الصورة المرفقة فى نهاية الكتاب . (المترجم)

٢- العقير

وما إن ربطنا الدهو إلى واحد من المدفعين القديمين المركبين بحيث تكون ماسورتاهما متجهتين نحو الأسفل ، ويقع كل واحد منهما عند نهاية حاجز الأمواج لاستعماله عموداً للربط ، حتى ظهر أمامنا الأمير - أو الحاكم المحلى - عبد الرحمن ابن خير اللّه بشخصه ليرحب بنا باسم ابن سعود ويدعونا إلى زيارة مسكنه فى القلعة . كانت الحامية المحلية مكونة من حوالى أربعين رجلاً مسلحين ، جرى جلبهم عند مدخل القلعة كى يرحبوا بنا ويستقبلونا ، وبعد أن مررنا من فناء القلعة ، صعدنا الدرج لنصل إلى غرفة استقبال الأمير فى الطابق الثانى ، وهى عبارة عن غرفة صغيرة قذرة ومعتمة مفروشة بعدد وفير من السجاد ، وبها قليل من التكّايات التى اتكأنا عليها ، ورحنا نتحدث مع مضيفنا ، واثنين من كبار خدمه ، بينما كان يجرى صبُّ القهوة والشاى . وعبد الرحمن مواطن من القطيف ، يشغل منصب الأمير منذ ما يقرب من أربع سنوات اعتباراً من مطلع ربيع عام ١٩١٤ الميلادى ، عندما قام ابن سعود باقتطاع العقير وبقية منطقة الأحساء من الأتراك . وطوال هذه المدة لم يزر عبد الرحمن موطنه سوى مرة واحدة استمرت شهراً خلال شهر رمضان من العام السابق . والقلعة ليس بها مكان لإقامة السيدات ، وتحدث لنا عن رغبته فى الانتقال إلى منصب مناسب يستطيع معه التمتع بصحبة مجتمع زوجته وأسرته . ويصرح عبد الرحمن قائلاً : "ومع ذلك ، كانت هذه إرادة الإمام[٤] ، وذلك قانون لابد أن ألتزم به" . كما تحدث عبد الرحمن أيضاً بحماس كبير عن التغيير الكبير الذى طرأ على المنطقة كلها على أثر تغيير الحكام ؛ فالحامية التركية الضعيفة لم تستطع أن تفعل أى شىء مطلقاً سوى الاحتفاظ بالبلدان والمواقع الواقعة على خط المواصلات ، الأمر الذى جعل لصوص البدو يعيثون فساداً فى الطرق والريف المحيط بها ، فى حين استطاع ابن سعود عن طريق مواجهة الغزو بغزو مضاد أن يصل إلى أعماق الصحراء الخالية من الماء والحياة التى كان اللصوص يحتمون بها إلى أن ينسى الناس جرائمهم ، كما استطاع ابن سعود أيضاً عن طريق سياسته الحكيمة التى تقوم على تقديم

المعونات للقبائل ، وتحجيم القبائل وإلتزامها بالنظام بشكل لم يسبق له مثيل . وعلى أى حال فقد توقفت القبائل عن إثارة القلق والمتاعب فى العقير ، وفى بلدان وقرى الأحساء ، كما توقفت القبائل أيضًا عن التعدى على حركة الملاحة الساحلية وإزعاجها .

وعندما هممنا بالانصراف نوهت إلى انشغالنا ببدء رحلتنا على الفور ، وبدهاء ولباقة ومكر العرب الذين أحسنت تربيتهم ، رد الأمير علىَّ قائلاً : إنه كان يتوقع بل وينتظر قدومنا قبل يومين ، وكانت لديه بالفعل الإبل اللازمة لبدء الرحلة على الفور ، ولكنه فقد الأمل منذ ذلك الحين فى وصولنا فى وقت مبكر ؛ وبالتالى أرسل الجمال إلى المراعى. ويلخص سعدى Sa'di الأمر : "كذبة سياسية خير من حقيقة مزعجة" . ومع ذلك ، فقد خفف عبد الرحمن من كذبته السياسية الواضحة بأن أكد على مجيء الجمال فى اليوم التالى ؛ وبناء عليه أمر بعمل الترتيبات المؤقتة اللازمة لبدء الرحلة عند فجر اليوم التالى ، وعدنا إلى زورقنا مؤجلين هموم إبحارنا وتمتعنا بالمناظر إلى صباح اليوم التالى .

والعقير التى تقع على شريط قفر ضيق من الأرض التى تظهر بعد انحسار الجزر ، فيما بين التلال الرملية والبحر ، لا يمكن أن تكون أكثر مما هى عليه الآن بأى حال من الأحوال ، مجرد خان لاستراحة القوافل ، تزداد أهميته التجارية وتقل أهميته الإستراتيجية ، ويعيش سكانها غير الدائمين من القوات والتجار عيشة كفاف وضنك معتمدين على أعمال التجارة أو الرسوم الجمركية ، وذلك على العكس من كل القطيف والجبيل[٥] التى لعبت الزراعة فيها دورًا أهم من التجارة فى دعم وتقوية كثير من المستوطنات التى يرجع تاريخها إلى عدة قرون . واسم العقير هى ومينائها يغريان الإنسان بالتأمل فيما إذا كان هذا المكان هو الموقع نفسه الذى قامت عليه مدينة جيرًا Gerra التى أنشأها بطليموس ، ذلك المثيل الذى أنا على يقين من أن له نظراء آخرين ، ولكن التأمل هنا يصبح بلا قيمة فى غياب الآثار أو إن شئت فقل : الأطلال المادية ، ومن غير المحتمل أن تكون قد نشأت أية مستوطنة من المستوطنات الرئيسية فى ذلك الموقع الذى لا يوجد فيه اليوم سوى بئر واحدة[٦] . ومرفأ جيرًا القديم ، الذى انطلقت

منه – قبل بداية العصر المسيحى وعلى امتداد قرون قليله منه – طرق القوافل التى وصلت إلى أقصى أطراف الجزيرة العربية ، إلى عُمان ، وإلى حضرموت ، وإلى اليمن ، وإلى بيترا Petra ، يمكن التحقق منه بلا أدنى شك من أطلال ميدان واسع يقال إنه جرى اكتشافه منذ زمن طويل عند الزاوية الجنوبية من خليج البحرين . وقد فقد ذلك المرفأ أهميته عندما هجر الناس استعمال طرق القوافل الجنوبية وعندما حلت القطيف محله ، بفعل القوة عند الطرف الشمالى من الخليج المواجه للبحرين ، هذا فى الوقت الذى لا تكون فيه للعقير أية قيمة أثرية ، وعلى الرغم من الاسم الذى تحمله والذى ينطقونه عقير ، أو عجير أو ريچع (بتعطيش الجيم) يبدو كأنه ما يزال يحتفظ باسم المستوطنة الرئيسية والمرفأ.

والمبانى الوحيدة فى العقير عبارة عن قلعة مربعة على شكل برج صغير ومخزن كبير للبضائع[٧] ؛ والقلعة والمخزن يشكلان كتلة بيضاوية مستمرة من الطين ، يصل طولها إلى حوالى ١٥٠ ياردة ، وعرضها إلى حوالى ٧٠ ياردة ، ويواجهان حاجز الأمواج الذى يمتد ناحية الجنوب داخل المرفأ من جزء ناتئ داخل البحر منبثق عن أرض خفيضة تبرز من الأرض الرئيسية ممتدة إلى مسافة حوالى ١٠٠ ياردة من لسان الحضض الممتد فى البحر . والأرض الرئيسية تحيط بالمرفأ ، وجرف العقير الناتئ هو ولسان حضض الناتئ أيضًا ، حيث يقع مدخل المرفأ بين الطرف الجنوبى للسان والساحل المواجه ، هذا المرفأ تحميه من الناحية الجنوبية جزيرة زخنونيًا Zakhnuniyya التى تبعد عنه عدة أميال . وهناك مجرى ضيق يقع بين جرف عقير ولسان حضض ، يربط المرفأ بالبحيرة التى تمتد مسافة ميل تقريبًا فى اتجاه الشمال إلى النقطة التى يظهر عندها لسان حضض بارزًا عن الأرض الرئيسية . وإلى ناحية الشرق من مخزن البضائع تقع بقعة من الأرض المالحة ، يستفيد الناس منها فى المخيمات ، فى حين يمتد فى اتجاه الغرب فى المنطقة ما بين القلعة والتلال الرملية خط عريض من البوص والشجيرات ، وعند الطرف البعيد من ذلك الخط تقع البئر التى سبقت الإشارة إليها . ويحميه برج مراقبة أبو زحمول Abuzahmul الدائرى[٨] . وتكمل المنظر هنا مقبرة مخربة تؤبن بعض أفراد الحامية التركية الذين أقاموا فترة قصيرة فى تلك المنطقة .

وفى صبيحة اليوم التالى نزلنا إلى البر ، وبعد أن أمضينا شيئًا من الوقت فى ترتيب متاعنا ونصب خيامنا رجعنا إلى القلعة التى كان الأمير قد عزمنا على تناول طعام الإفطار فيها . كان الإفطار عبارة عن وجبة بسيطة من الأرز ، ولحم الضأن ، والخضراوات والتمر ، وقُدِّم لنا على حصير دائرى الشكل مدوَّه وسط المجلس . وعقب تناول الإفطار شربنا القهوة وتجاذبنا أطراف الحديث ، ثم سمعنا صوت المؤذن يدعو المؤمنين لأداء صلاة الجمعة فى جامع القلعة ، وكان الأذان بمثابة إنذار لنا بالانصراف .

وعلى حد يقينى فإن إمارة العقير لا تزيد عن كونها منصب شكلى - رغم أهميته - يدرُّ دخلاً ولا يتطلب عملاً ، ولا ينطوى على أى قدر من العمل أو المسئولية ، باستثناء قيادة القوة المحلية وإشراف غير واضح على إدارة الجمارك التى يديرها ويشرف عليها مدير . وهذا المدير هو بدوره أيضًا من أبناء القطيف ويساعده بلا حدود أخوه ومجموعة من العبيد الذين ينفِّذون الأوامر تنفيذًا أعمى ، وتتمثل مهمة ذلك المدير فى تفتيش كل السفن القادمة ، وتحديد قيمة الرسوم المستحقة على حمولاتها وكذلك تحديد الرسوم المستحقة التى تجلب من الداخل للتصدير . وفى أثناء زيارتنا كانت فى الميناء سبعة من قوارب الدهو تقوم بتفريغ حمولاتها التى كانت خليطًا من الأرز ، والسكر ، والبن ، وصفائح الكيروسين الفارغة التى تشكل مع لفَّات المنسوجات ، والشاى، والتوابل الجزء الأكبر من احتياجات وسط الجزيرة العربية من العالم الخارجى ، إذ تستعمل الصفائح الفارغة فى تعبئة التمر والسمن (المسلى)[٩] . والتمر والمسلى والجلود والحصير المصنوع من البوص هى سلع التصدير الدائمة ، والتمر والحصير يأتيان أصلاً من الأحساء ، فى حين يمثل المسلى والجلود مساهمة البدو فى الأسواق العالمية .

والتعريفة الجمركية فى الأراضى الوهابية هى تلك المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، والتى حددها النبى ﷺ لكل الأزمان ، وتقدر بحوالى ثمانية فى المائة على جميع البضائع الواردة أو المصدرة ، ومعدل ثابت مقداره دولار واحد من التصدير ، يحسب بطبيعة الحال ، بالطريقة السابقة نفسها ، فى حالة التمر والمسلى . وهو الفارق الوحيد عن ذلك المعدل العام ، وهذا هو ما حصلتُ عليه من فم مدير الجمارك نفسه ،

برغم أن الخبرة التى اكتسبتها بعد ذلك تجعلنى أشكك فى ذلك الذى رأته عيناى أو بالأحرى أتشكك فى أمانة المدير ، يتمثل فى الجمارك المفروضة على التبغ (الدخان) الذى تجىء عنه جمارك بنسبة عشرين فى المائة ، رغم تحريم استيراده فى أراضى ابن سعود بحكم العقوبات المباشرة المفروضة عليه . ومع ذلك فمن المعروف أن الدخان يدخل هذه البلاد وبخاصة منطقة الأحساء كلها بصورة منتظمة ، وليس هناك أى اعتراض على شرب الدخان فى المجالس الخاصة ، وهذه عملية يمارسها مدير الجمارك هو وشقيقه عندما يكونان متأكدين ممن يرافقونهما . أما عن طريقة تعاطى الدخان فى قلب الجزيرة العربية فسوف أتكلم عنها فى مناسبات أخرى .

والعملة المستخدمة فى الجزيرة العربية هى الريال[١٠] أو دولار ماريا تريزا ، ولكن الأحساء يشيع فيها استعمال الروبية ، كما يشيع استعمالها أيضًا فى أماكن أخرى ولكن بمستوى أقل وبسعر الصرف المعتاد ، والذى تراوح خلال العام الذى أمضيته فى التجوال هناك بين ٢٣٠ و ٢٦٠ روبية لكل مائة ريال . والبيزة المسقطية (العمانية) تتساوى من حيث القيمة مع البيزة الهندية ، والتى يشيع استعمالها فى كل أنحاء بلاد ابن سعود ، هذا فى الوقت الذى لا يحظى فيه النيكل الهندى أو التركى ولا العملات الفضية ذات القيمة الأصغر بتداول كبير فى المراكز التجارية . وإضافة إلى ما سبق فإن الأحساء أو إن شئت فقل : الأحساء وحدها ، توجد بها عملة فضية نحاسية تعرف باسم الطويلة[١١] وهى على شكل U ؛ والمعروف أن البيزتين [١٢] تساويان ثلاثة طويلات ، والنقود الورقية لا تستعمل بطبيعة الحال فى المناطق الداخلية ، بالرغم من أن التجار الكبار يقبلونها ، دون شك ، من عارضيها بعد خصم معقول من قيمتها ، وباعتبار ذلك جميل يصنعه التاجر فيمن يعرض عليه تلك النقود . والذهب بنوعيه البريطانى والتركى يجرى التعامل فيه بالأسعار السائدة[١٣] ، ولكن يصعب القول إن النقود الذهبية كانت سائدة وتستعمل فى الأغراض المعتادة ، قبل ثورة الشريف[١٤] ، التى بدأت النقود الذهبية بعدها فى اكتساح شبه الجزيرة العربية ؛ والواقع أن الذهب يكثر استعماله فى غرب الجزيرة العربية ، إلى حد أن الناس

يتحاكون فى نجد ، الأقل حظًّا ، عن ذلك البدوىّ الذى دفع جنيها ذهبيًا إنجليزيًا نظير علبة من الثقاب وانصرف لحال سبيله دون أن يطلب الباقى .

الرسوم الجمركية تدفع فى معظمها بالروبية ، وقد بلغ إجمالى متحصلات دخل خزانة الرياض من موانئ الأحساء الثلاثة فى عام ١٩١٧ الميلادى حوالى ٤ لاكات Lacs روبية . ويجب ألا يغيب عن بالنا أن ذلك العام كان واحداً من أعوام الحرب العالمية الأولى وحظر الحركة الملاحية ، وقد يكون من المعقول هنا القول: إنه فى ظل الظروف المعتادة كانت حصيلة الرسوم الجمركية تقدر بما يتراوح بين ٨ إلى ١٠ لاكات روبية كانت كلها تدخل بيت المال ، أو إن شئت فقل خزانة الدولة ، ممثلة لتجارة الصادرات والواردات التى تتراوح قيمتها الإجمالية بين ١٠٠ و ١٣٠ لاكا من الروبيات ، تمثل رسوم الواردات منها حوالى الثلثين ، وذلك باستثناء جميع البضائع التى يجرى استيرادها لحساب ابن سعود بطبيعة الحال . كان تجار الأحساء يحصلون على الجزء الأكبر من وارداتهم من الأسواق الهندية التى كانت تقبل المدفوعات العينية ممثلة فى فائض إنتاج البلاد ، كما كانت تقبل أيضًا المدفوعات النقدية فى الميزان التجارى ، بل كان التجار يتخلصون من بضاعتهم فى داخل البلاد عن طريق مقايضتها بمنتجات الواحات والمنتجات الصحراوية مثل التمور ، والمنتجات البستانية ، والجلود، والمسلى ، والحصير ، وأخيراً وليس آخِراً ، الجمال التى تعد المعدات الرئيسية فى تجارة البدوى الحق الذى من سوء حظه وقلقه تبدلت أحواله خلال العقد الأخير وبخاصة خلال سنوات الحرب الأربع ، التى فاق خلالها ارتفاع مستوى معيشته بشكل تجاوز كل التوقعات بسبب زيادة قيمة الجمل . فمنذ أربعين عامًا كان دوتى Doughty يحسب أن الريالات القليلة التى ما زالت فى حوزته تكفى انتقاله من القصيم إلى الكويت ، أما اليوم فإن الأجرة المعتادة للجمل الذى يسافر من الداخل إلى الشاطئ تتكلف ٣٠ ريالاً ، وأنا منذ أشهر قلائل[١٥] حاولت وبلا جدوى استئجار خمسة جمال بالسعر نفسه للانتقال من الزلفى إلى الكويت . والناس هنا يتحدثون عن الأيام الخوالى التى كان يمكن خلالها شراء حيوان نقل الأمتعة بحوالى عشرين ريالاً ، فى حين إن أسعار ذلك الحيوان تتردد حاليًا بين

٨٠ و ١٥٠ ريالاً . والجزيرة العربية البدوية لم تشهد مطلقًا رواجًا مثل الذى تشهده اليوم ، ولكن منجم الذهب توقف وسرعان ما سيختفى أثره فى مستوطنات الخيام السوداء ، شأنها فى ذلك شأن مجارى سيول الشتاء عندما تتحول إلى مجارى جرداء عندما ينتهى فصل الصيف .

وفى غياب الإحصائيات الدقيقة يستحيل علينا التعنت فيما يتعلق بالأهمية النسبية لمرافئ الأحساء الثلاثة فى ظل الظروف الراهنة ؛ القطيف ، بالرغم من تنافسها على التجارة الداخلية تعتمد عليها اعتمادًا كليًا ، كما أنها هى التى تحتكر ، وبلا منازع ، توريد كل تموينات ومستلزمات المنطقة الزراعية الرائجة والكثيفة السكان والتى هى عاصمة لها بالفعل ؛ والجبيل ما تزال فى مرحلة الحضانة من التطور التجارى ولكن من المرجح لها أن تحرز تقدمًا كبيرًا إذا ما توفر لها الدعم المالى اللازم لإنشاء الأرصفة والمخازن الضرورية ؛ فى حين أن العقير التى تتعامل حاليًا مع ما لا يقل عن نصف إجمالى تجارة ساحل الأحساء الداخلية ، تتمتع أيضًا بميزة القرب من واحة الأحساء ، تبدو أنها كتب عليها التخلى عن اتصالاتها الداخلية بميناء الجبيل عندما يبدأ ذلك المرفأ فى القيام بدوره . اللهم إلا إذا جرى ، فى الوقت نفسه ، تطهير ذلك المرفأ الرائع الذى يعد من أفضل مرافئ ساحل الجزيرة العربية عن طريق التكريك أو أية وسيلة أخرى من ذلك الهم الثقيل الذى يتمثل فى المدخل السيئ الذى لا يسمح حاليًا إلا بمرور السفن قليلة الغاطس[١٦].

أضف إلى ذلك أن مرافئ الأحساء تقع تحت رحمة البحرين ، التى يقوم الشيخ عيسى فيها ولمصلحة خزانته بفرض رسوم جمركية على شحنات البضائع المتجهة إلى نجد ، فى الوقت الذى يجرى خلاله عبور تلك الشحنات خلال مياهه الإقليمية ، الأمر الذى ترتب عليه انحراف الجزء الأكبر من تجارة وسط الجزيرة العربية وتحولها إلى الكويت التى لا تدفع فيها البضاعة التى ستباع فى بلاد ابن سعود وبلاد ابن الرشيد سوى رسوم جمركية واحدة لخزانة الشيخ سالم . وعلى ذلك ففى الوقت الذى تدفع الأحساء فيه رسومًا جمركية مزدوجة على جميع البضائع التى تستوردها

للاستهلاك ، يجد تجارها أنفسهم معزولين ، فيما يتعلق بالسلع عالية القيمة ، فى أسواق الرياض وجنوبى نجد ؛ نظراً لأن تجار شقراء يستوردون بضائعهم عن طريق الكويت ثم ينقلونها بعد ذلك إلى العاصمة الوهابية[١٧].

من الواضح أن أسس علم الاقتصاد لم تصل بعد إلى بلاط أمراء الجزيرة العربية ، وعلى حد معرفتى إنه لم يخطر ببال ابن سعود الذى يعد الخاسر الأكبر فى ظل الظروف الحالية أن يسائل جيرانه فى أحقية الاستفادة من موقعهم الجغرافى على حسابه هو ، أو يواجه سيطرتهم على الموقف مستخدماً فى ذلك أسلحة أكثر فاعلية من الأحلام الغامضة بإنشاء ميناء منافس على ساحله هو . وهنا يتعين علينا ألا تغيب عن أذهاننا الحقيقة التى مفادها أن الوضع الراهن هو إرث من أيام الحكم العثمانى وأن أربعة أعوام من الحرب مع سلسلة مشكلاتهم السياسية أصبحت عاملاً مناوئًا أمام حل أو حتى مناقشة المشكلات الاقتصادية للأراضى الوهابية . وتطوير العقير أو الجبيل عملية طويلة ومكلفة وتنطوى أيضًا على التضحية بقسم كبير من الدخل فى حين تؤدى العوائد السريعة لإبرام إنفاق التعريفة الجمركية مع البحرين أو إنشاء كردون جمركى برى[١٨] حول الكويت إلى انسياب الأرصدة على خزانة ابن سعود ، الأمر الذى يمكن أن يفيد منه فى إنشاء ميناء فيما بعد .

ومن وقت لآخر فى أثناء النهار كانت مجموعات من الإبل تظهر وتختفى عند خط السماء فى التلال الرملية ، كما كان الرصيف يشكل منظراً عامراً بالحياة نظراً لأن أطقم القوارب وحداة الإبل كانوا ينوءون بحمل بالات البضاعة ، وكانت أصوات الإبل مختلطة بصراخ حداتها ، أولئك البدن المخشوشنين الذين كانوا يطيلون النظر إلى ملابسنا الإنجليزية غير المألوفة ، ونحن نتجول ونتنقل فيما بينهم ؛ وكانت تسير مع الجمال حمير الأحساء البيضاء العظيمة وأصحابها على ظهورها ، وهؤلاء هم القرويون يمارسون حرفة الاستئجار شأنهم فى ذلك شأن حداة الإبل ، ويستمر ذلك السيل على هذه الوتيرة طوال اليوم ، ومع ذلك لم تظهر بعد إبلنا ، وعندما غربت الشمس كنا نتساءل إن كانت تلك الإبل ستظهر أو لن تظهر مع صبيحة اليوم التالى .

٣- من العقير إلى الأحساء

صحونا مبكرًا فى صبيحة اليوم التالى استعدادًا لبداية رحيلنا فى ساعة مبكرة ، ولكننا كنا جديدين على الطرق والأساليب المتبعة فى الجزيرة العربية ، وترتب على ذلك أن أصابنا الإحباط وخاب أملنا . فلم نر ولو مجرد أثر أو حتى إشارة إلى الإبل التى رأيناها بالأمس ، أو حتى القادمين الجدد إلى العقير . كانت زوارق الدهو لا تزال راسية فى الميناء وبلا أى عمل ، وكان الشاطئ مثلما تركناه بالأمس عند غروب الشمس تتناثر عليه بالات الجوالات والأكياس ، ولم يكن عليه أى كائن من الكائنات الحية أو البشرية . وبدأت الشكوك تراودنا حول إمكانية أو احتمال بداية الرحلة فى ذلك اليوم ، وبناء على ذلك قصدت إلى حيث يقيم الأمير لكى استنكر حنث الأمير فى وعده . واعترف لى الأمير بعدم وصول الإبل ، ولكنه احتج مؤكدًا أنها سوف تصل خلال وقت قصير ، اقترح علىَّ فى الوقت نفسه أن الحمير ستكون أكثر إراحة لنا فى الركوب، كان ذلك اقتراحًا مشئومًا ؛ إذ كان من الواضح أنهم لم يتخذوا أية ترتيبات بشأننا ، وأنه حتى فى حال وصول الإبل فسوف يتعين علينا ركوب دواب الحمل (الحمير) - وهذا هو ما حدث بالفعل . وحتى عندما كنت أتحدث مع الأمير فى شرفة القلعة شاهدنا خمسة من الجمال تتحرك متثاقلة عند خط السماء وهى تنزل منحدر التلال الرملية ، وتعجب الأمير بشىء من الارتياح الواضح قائلاً : "ها هى الإبل قادمة" ، ونظرًا لضعف الأمل فى استعجال قدوم بقية القافلة عن طريق الانشغال بالحديث مع الأمير سارعت بالعودة إلى معسكرنا كى أبلغهم بأمور رحيلنا .

ومع ذلك ما إن هدأنا واستقر حالنا ورضخنا لانتظار غير مسمى حتى رأينا موكبًا مهيبًا برئاسة الأمير ومعه مدير الجمارك وآخرون ، جاءوا إلى معسكرنا ليعلنوا وصول الإبل . وجاء معهم شخص يسرُّ الخاطر ولكنه من النوع الثرثار ، هو سلطان ابن سويلم الذى أبلغنى أنه شقيق عبد الرحمن أمير القطيف ، كما كان يحدثنى أيضًا عن مهمة سرية سوف يوفده فيها ابن سعود نيابة عنه إلى مسقط ، وهنا بدأت أرض المعسكر تشهد العشرات من الجمال وعشرات من الحمير بصحبة الحمارين

وحداة الإبل من الرجال والنساء ، وترتب على ذلك مشهد من مشاهد الفوضى التى لا يمكن وصفها ، بُرِّكت الجمال وتناثرت أمتعتنا هنا وهناك ، وقامت مجموعة من النساء الماهرات فى تصنيف الأمتعة إلى أحمال تناسب قدرات الدواب المختلفة ، ورحن تصدرن قراراتهن على شكل صراخ وصياح كان ينبعث من خلف خمرهن السوداء المصنوعة من الموسلين الأسود السميك ، ويطلب من الجميع التزام الاحترام العام والطاعة .

وفى الوقت نفسه جرى تحميل الأمتعة الخفيفة على الحمير ، فى حين بقيت الأحمال الثقيلة على الأرض بعد تصنيفها على جوانب الجمال استعداداً لتحميلها عليها ، ثم خيم السكون والهدوء على المكان من جديد نظراً لإبعاد الدواب والرجال غير المطلوبين عن المكان . وأنزلوا خيامنا ووضعوا الأحمال بدلاً منها وأصبح الجميع على استعداد لبدء المسير . وجرى حجز ثلاثة من الجمال الواعدة كى نركب عليها ، فى حين كانت بقية الإبل تزمجر وتكشر عن أنيابها فى أثناء نهوضها ، أمام استبداد الرجال الذى لا يطاق ، واستأنفت الجمال مسيرها فى اتجاه التلال الرملية فى المدقات نفسها التى سارت فيها الحمير التى كانت قد سبقت الجمال .

وراح الأمير وهو يشير فى اتجاه الركب الراحل مهنئًا نفسه على حظه السعيد يوبخنى حزنًا منه على نفاذ صبرى فى الصباح قائلاً : "كل ما ينتهى بخير فكله خير" ، ومع كل ذلك فالفرق طفيف بين الفجر والظهيرة . وطيَّبت خاطره بكلمات طيبة وساعة أعطيتها له هدية ، وقبل ظهر اليوم السابع عشر من شهر نوفمبر ركبنا الجمال وبدأنا رحلتنا إلى الداخل .

كانت جماعتنا مكونة منا نحن الثلاثة الذين كنا نركب الجمال بالإضافة إلى طباخ ورجل آخر يجيد الأعمال اليدوية اسمه أحمد ، انتقيناه عندما كنا على سطح قارب الدهو ، والذى هجرنا دون أن يحصل على إذن منا أو الحصول على أجره عندما وصلنا إلى جيشه Jisha إضافة إلى حرس مسلح مرافق مكون من أربعة أفراد ، وفرهم لنا أمير العقير ، إضافة إلى خمسة عشر حماراً يقوم على أمرها ستة من الحمَّارين ، فضلاً عن اثنين وعشرين جملاً لحمل الأمتعة وتحت إمرة شخص يدعى عليًا

من فخذ ابن شريب[١٩] من قبيلة مرة ومعه ثلاثة رجال أحدهم رجل عجوز هرم ، ركب المسافة بطولها وراح يتمتم لنفسه طول الوقت ، فضلاً عن امرأتين ، وكلهم ينتمون إلى الفخذ نفسه . وركبنا نحن وحرسنا الحرس المرافق لنا على الطريق بطولها ، أما البقية باستثناء العجوز ، فقد تناوبت المشي والركوب ، أما النساء اللواتي حظين بإعجابنا لمهارتهن التي تشبه مهارة القردة ، عندما كن يتسلقن جملاً بعد آخر ليعدلن الأحمال ولشد الأحبال عندما لا يكن ماشيات ، فضلاً عن أن مشيهن كان أكثر من ركوبهن .

حمار الأحساء الأبيض الذي له جسم ضخم مثل جسم البغل ويميل لونه الأبيض إلى الاصفرار الباهت ، يبدو وكأنه ينتمي إلى فصيلة مستقلة بذاتها . وحمير الأحساء مثل سائر الحمر ، بالرغم من أن عين الخبير الماهر تستطيع تمييز تلك الحمر عن حمير الصلوبة Suluba[٢٠] التي شاهدتها مرات عديدة وفي مناسبات عدة أيضاً ؛ وحمير الصلوبة ، يستعملها أصحابها الذين يشبهون الغجر في رحلات الصيد التي يقومون بها في مسارب صحراء النفود الشاسعة في شمال الجزيرة العربية ، وهذه الحمر تشتهر بسرعتها وقوة تحملها للعطش ، في حين يقتصر استعمال حمير الأحساء على أبيار السقيا في الواحات وفي عملية النقل بين الهفوف والساحل ، وهذه الحمر أثقل من حمير الصلوبة وأبطأ منها ، ولكنها تعد بديلاً كفؤا عن الإبل حتى في السير على الرمال شريطة أن يتوفر الماء لتلك الحمر على مسافات معقولة . وعلى حد معرفتي فإن حمير الأحساء لا تستعمل مطلقًا على الطرق الصحراوية بين الهفوف والرياض[٢١] . ونظرًا لأن تلك الحمير يربيها أهل قرى الأحساء بأعداد كبيرة ، يقال إن الطلب يتزايد عليها في كل من مكة والمدينة ، والأرجح أن يكون ذلك لأغراض الركوب ، ولقد رأيت الناس في الرياض يستعملون تلك الحمر على نطاق واسع ، كما تستعمل أيضاً في شقراء وفي القصيم في سحب مياه الري من الآبار . والحمار الجيد من ذلك النوع يصل ثمنه إلى حوالي مائة ريال في حين يتراوح سعر حمار المناطق الداخلية بين خمسين وستين ريالاً .

وبعد ربع ساعة من مغادرتنا لبرج المراقبة عن يميننا وصلنا إلى سفح التلال الرملية ، ومن أولى الحواف المرتفعة لتلك التلال ألقينا نظرة على ميناء العقير وعلى خليج البحرين السماوى الواسع من خلفه ، فى حين كنا نرى أمامنا بحراً من الرمال المتحركة الذى بدأنا نخوض فيه فى اتجاه بقعة سواد Suwad السوداء الصغيرة ، التى هى عبارة عن مجموعة من أدغال النخيل القزم الصغير[٢٢] وتتخللها أشجار المرخ [٢٣]، والتى تقع فى غور ضحل يبعد حوالى ميلين عن العقير . وهذا النخيل القزم يحمل تمراً صغيراً لا طعم له لا يأكله إلا البدو الجوعانين . وفى أقصى الجنوب تراءت لنا تلة صغيرة يطلق عليها اسم القارة Alqara .

وبطول خمسين[٢٤] ميلاً تقريباً كان ذلك الجدب الموحش يعترض سد الرمال بين البحر وواحة الأحساء ؛ ومن ناحية الجنوب كان ذلك الجدب الموحش يحد من ناحية البر بروز قطر الناتئ داخل البحر ، ويمتد على ما يبدو إلى ما وراء ذلك النتوء فى متاهات رمال الربع الخالى ؛ وفى اعتقادى يمتد ذلك الجدب الموحش أيضاً فى اتجاه الشمال بطول ساحل الكويت . وراحت الإبل المتعبة تخوض خلال تلك الرمال فى المرتفعات والمنخفضات ، وعبر الأغوار والحواف المرتفعة ، فى حين غابت عن أنظارنا الحمير التى سارت فى طابور واحد من تلقاء نفسها ، ولم تنضم إلينا إلا بعد أن خيمنا لقضاء الليل . ورمل تلك البرية التى يطلق عليها اسم بر الأحساء Barr al Hasa حبيباته بيضاء اللون ؛ وأساس ذلك النوع من الرمال – إذا ما حكمنا عليه من واقع الصخور التى كانت تواجهنا من حين لآخر – هو الحجر الجيرى . والحياة النباتية وفيرة فى المنحدرات الرملية ، التى تنمو فيها حشائش من أنواع بعينها ، وفى الأغوار تنمو نباتات الفاكهة . وذاك المدق تسير فيه بلا انقطاع القوافل الغادية والقوافل القادمة أيضاً .

وبعد أن تجاوزنا السواد Suwad بثلاثة أميال ونصف مررنا بمنخفض لاساف Lasaf ، الذى تعيش فيه بعض الأعشاب على المياه السطحية الملحة . وتقع منطقة أبو خيالة Abu Khayala وثقوب مياهها العذبة على مسافة ميل ونصف الميل بعد منخفض لاساف ،

وبعد ذلك بفترة وجيزة عبرنا غور أم الضَّر Um al Dharr الذى يمتد - شأنه شأن المنخفضات الأخرى المماثلة له - فى اتجاه البحر ناحية الشمال الشرقى . وفى اتجاه الجنوب من مسارنا عند هذه النقطة تقع حفرة الماء التى يطلق عليها اسم نبع Nabae، التى يوجد فيها أيضًا بئر الغينة Al Ghina على بعد ثلاثة أميال فى اتجاه الغرب . وهنا وصلنا إلى سلسلة من الجبال المنخفضة الجيرية التى يطلق عليها اسم الجسرة Jasra، والتى تمتد شمالاً وجنوبًا إلى مسافة نصف ميل عبر الرمال الجرداء . وهنا انقسم المدق إلى قسمين ، أحدهما يتجه ناحية الشمال من سلسلة الجبال فى اتجاه بئر قحدية Qahdiyya ، فى حين سرنا نحن فى الطريق الآخر ، ومررنا بين رافدين من الصخور اللذين ألقينا منهما النظرة الأخيرة على البحر البعيد من وراء التلال الرملية ، لنهبط بعد ذلك إلى منخفض بورايمان Buraiman الضحل الذى خيمنا فيه لقضاء الليل .

كنا عندئذ نبعد حوالى ١٥ ميلاً عن العقير وعلى ارتفاع حوالى ٢٥٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، وكانت تحيط بنا بقع مبعثرة من النخيل القزم الذى يكافح من أجل الحياة مع الرمال المتنقلة التى كانت قد طمست تمامًا آثار البيت التركى المبنى من الآجر، والذى كانت تقيم فيه القوات التركية التى كانت تحمى طريق القوافل . وحكوا لنا - وهم يوقدون نار المخيم - أن الرحالة فى الأيام الخوالى لم يتلكَّئوا فى هذا المكان خوفًا من البدو ، ولكنهم كانوا يتعجلون بعد الحصول على الماء من عيون الماء الضحلة ، التى كان يغترف منها كل من يصل تلك الرمال ، والسبب فى ذلك أن الحامية التركية التى كانت آمنة خلف الجدران المصنوعة من الطين لم تكن توفر الحماية لأولئك الموجودين خارج تلك الجدران . وجلسنا على أرض المخيم التى تقاسمناها مع عبد الله ابن شريدة ، سليل إحدى الأسر العريقة فى بريدة ، والذى كان عائدًا من زيارة المنطقة الوسطى ، إلى منزل له فى البحرين . كان عبد الله بن الشريدة يصحب معه نساء الأسرة اللواتى جلسن خلف ساتر مكون من دغل من النخيل ، فى حين انضممت أنا إلى الرجال لشرب القهوة معهم وهم يتحلقون حول النار ساطعة اللون . لم يحضر رجالنا معهم أى نوع من أنواع المؤن التى يمكن أن يقتاتوا بها على الطريق ، ولكنهم

قبلوا على الفور وبلا أى نقاش علبة لحم محفوظ مما كنا نحمله معنا ، ونامت النساء صائمات .

وانقضى الليل دون حدوث أى شىء اللهم باستثناء زيارة ذئب لنا ، ولم تفسد علينا نومنا الطلقة النارية التى انطلقت من إحدى البنادق بعد فوات الأوان ولم نتمكن من إنقاذ الطلى المخصص لغداء ابن شريدة فى العقير ؛ وفى الصباح أشاروا لنا على الجثة التى كانت ما تزال حارة وتركوها تتعفن فى شمس الصحراء ، وها هو البدوى الذى لم يرفض عليه اللحم المحفوظ التى أعطيناه إياها مساء الأمس يعاف تلك الميته . والرأى العام فى مسائل التحيز الدينى تكون له الغلبة والقوة ، ومع ذلك فإن لحم الطريدة يمكن تحليله بعد موت الذبيحة إذا ما بسمل فاتح النيران على الزناد قائلاً : "بسم الله" .

وواصلنا مسيرنا فى اتجاه الجنوب الغربى ، عبر التلال الرملية فى بقعة من الأرض يقال لها نقيعات العيش Nuqaicat al Aish التى عبرناها إلى أن نجد به تموجات رملية أكثر ارتفاعًا يطلقون عليها اسم الأعلا Al Aala التى كنا كلما وصلنا إلى قممها – من وقت لآخر – نلقى نظرات خاطفة على تلال الأحساء . البريقة Al Buraiqa فى اتجاه الغرب ، وهى سلسلة طويلة من الجبال الوعرة ، والقارة[٢٥] Al Qara ناحية الجنوب الغربى من أمامنا ، وهى عبارة عن تل صغير مستوى السطح ، والربوات الأربع التى يقال لها الأربعة فى أقصى الجنوب الغربى ، وقيل لنا إنها تقع عبر الطريق القادم من قطر إلى الأحساء . كانت تتناثر فى الريف الذى سرنا عبره الشجيرات الصحراوية القصيرة الكثيفة ، كما شاهدنا – فى كل مكان – قطعان الأغنام التى كانت ترعى ، والتى قيل لنا إن أصحابها هم بنو هاجر Bani Hajir ، وفى ناحية الجنوب كانت توجد مراعى آل مرة Al Murra والمناصير ، أما فى اتجاه الشمال فكانت توجد مراعى العجمان Ajman والعوازم .

وعلى مسافة حوالى ١٤ ميلاً من البوريمان Buraiman يعبر تلك التلال الرملية شريط عريض من التربة المشبعة بالملح ، هو الحوض الجاف – على حد اعتقادى –

للمجرى المائى الذى يمتد جنوبًا وشمالاً من الطريق الذى نسير فيه ، وهنا ظهر أن ذلك المجرى يغيِّر اتجاهه من الجنوب الغربى إلى الشمال الغربى . أما من أين يبدأ ذلك المجرى وأين ينتهى فتلك مسألة أنا لست متيقنًا منها ، وليس لدىَّ مزيد من المعلومات عنها ، باستثناء أن الماء إذا كان مالحًا فى أبيار شاتار Shatar التى تقع على طريقنا فإن ماء المريذيب Muraizib وماكو Makku – اللذين يقعان جنوب وشمال أبيار شاتار واللذين يقعان مثل شاتار على حافة الشريط المالح – عذب وليس مالحًا . وعندما وصلنا شاتار تتبعنا حوض ذلك المجرى المائى الذى يطلقون عليه اسم السَّبخة[٢٦] فى اتجاه الجنوب إلى النقطة التى ينحرف عندها ذلك المجرى مبتعدًا عن الجنوب الشرقى فى هذه المنطقة بين بقعة من الأدغال عن شمالنا تعرف باسم سح البرانى Sah al Barrani ، وقلعة قديمة يطلقون عليها اسم الخوينيج Khuwainij، التى لا نراها تمامًا ، وعلى بعد مسافة منا من الجانب الأيمن دخلنا من جديد إلى المنطقة الرملية الجدبة حيث مجموعة من النخيل القزم يطلقون عليه اسم الخيسة Al khisa ، التى يبدو أنها النقطة التى تلتقى عندها الطرق الثلاثة البديلة بين العقير والأحساء . وأحسن تلك الطرق الثلاثة هو ذلك الطريق الذى سلكناه ؛ أما الطريقان الآخران فيقعان على جانبى هذا الطريق وعلى مقربة منه ، والطريق الموجود فى أقصى الشمال يفترق عن طريقنا فى المنطقة أمام سلسلة جبال جسرة Jasra ويسير على شكل خط خلال أبيار قحدية Qahdiyya ، وذقين Zuqain ، وأبو المرس Abul Maris ، وماكو ، والخوينيج ، فى حين يتفرع الطريق الجنوبى الذى لا يحبذه المسافرون فى معظم الأحيان فى المنطقة المجاورة لأبى خيالة Abu Khayala ويتلامس مع أبيار نبع Naba' وأبيار غينا ، والمريذيب ، ثم ينضم من جديد إلى الطريق الرئيسى عند الخيسة عن طريق سح البرانى .

والطريق – عند هذه النقطة – يعبر سلسلة من الجبال المنخفضة المتوازية التى تغطيها قشرة نحيفة نسبيًا من الرمال فوق أساس من الحجر الجيرى ، وهذا أمر متكرر ويطلقون عليه اسم النقيرات Al Nuqairat ، وتنتهى تلك السلسلة بحاجز عميق

من الرمل المتراكم ، رحنا نهيم بصعوبة بين كتلها المتداعية ، فتارة نسير فى منخفض عميق وتارة أخرى بحذاء جانب منحدر إلى ما قبل وقت قصيرمن الساعة الرابعة مساءً ، وبعد أن سرنا بلا توقف منذ الساعة الثامنة صباحًا ، وعندما وصلنا إلى آخر قمة من قمم تلك البرية الرملية المتموجة رحنا ننظر ناحية الأسفل إلى مشهد محبب إلى النفس بشكل غريب ؛ مشهد حزام أسود واسع من النخيل ومن خلفه الشمس فى أثناء غروبها .

٤- الأحساء

"لا إله إلا الله ؛ لا إله إلا الله !" قالها كل واحد من أولئك المنهكين ، عندما وصل إلى قمة التل شاهدًا على وحدانية الله ، خالق التناقضات كلها ، وخالق الليل والنهار ، وخالق البحار والأرضين ، وخالق الصحراء والنماء ، كنا نرى أمامنا واحة الأحساء بخلفيتها الكريهة التى تتكون من صحراء شاسعة مترامية كما كنا نشاهد أيضًا الدخان المتصاعد من كفورها (هجراتها) المبعثرة هنا وهناك ، الأمر الذى حثنا على إسراع الخطى إن أردنا الوصول إليها قبل حلول الليل .

وعلى الرغم من أنها بدت قريبة لنا ، فإن حافة حزام النخيل ما تزال تبعد عنَّا مسافة ثلاثة أميال ، هذا يعنى مسيرة ساعة كاملة بالجمال ، وكانت الساعة فى ذلك الوقت الخامسة مساء قبل أن نهم بعبور السهل الذى يتوسط هذه المنطقة ، وحوَّلنا اتجاه دوابنا جنوب الفضاء الواسع الواقع بين قرية جيشة وحزام النخيل . ولما كنا نعانى من الالتهابات والإنهاك بفعل السفر الذى استمر يومًا كاملاً ، فقد تركنا رجالنا ينصبون الخيام ويساومون القرويين ، الذين سرعان ما ظهروا لنا ومعهم بضاعتهم التى كانوا يعرضونها للبيع - البرسيم الحجازى الذى تأكله الإبل ، والتمر الذى يأكله الرجال - ورحنا نتجول فى بيارات النخيل . كان منظر المجارى المائية هى وخريرها جميلاً ، وهى تشق لنفسها طريقًا بين بيارات النخيل ، وكانت حقول البرسيم الحجازى

تسر الخاطر أيضًا هى وحقول القمح التى كانت على شكل بادرات خضراء صغيرة ، كما كانت الأشجار المثمرة ، وأشجار الليمون ، والرمان ، والتين ، والعنب ، تشرح الصدر وتسر الخاطر أيضًا .

وعندما بدأ الليل يرخى سدوله على ذلك المشهد ، عدنا إلى المخيم لنجد أن الرجال الذين أوفدوا إلى القرية لإحضار الطعام اللازم للعزيمة لم يعودوا بشىء سوى عنزة صغيرة طلب صاحبها ثمنًا لها لا يقل عن خمسة ريالات . وعلى الفور جرى إيفاد مبعوثين آخرين إلى الأمير المحلى الذى لم يقتصر على مجرد تزويدنا بما طلبناه وإنما قام أيضًا بزيارتنا وبصحبته ولده ، وبعد أن تناول معنا القهوة فى المخيم أصرَّ على مرافقتى له لشرب القهوة فى منزله فى الوقت الذى يجرى فيه تجهيز طعام العشاء .

كان أحمد بن سيل Sail أمير جيشة Jisha رجلاً كبير السن مصابًا بشىء ما فى بصره ؛ ومع ذلك وعلى الرغم من فقدان البصر فإنه كان قد عاد مؤخرًا من مكة التى سافر إليها لأداء فريضة الحج لأول مرة ضمن الموكب الراكب العظيم الذى انطلق من نجد فى فصل الصيف . لقد غاب أحمد سيل أربعة أشهر انتقلت خلالها مهام وظيفته إلى ابنه ناصر Nasir ، ذلك الصبى الذكى المليح الذى يبلغ من العمر ستة عشر صيفًا . وسرعان ما امتلأ بالناس مجلس الأمير الضيق عندما بدأت تدوى ضربات الهون ، أما أنا فقد حشرونى فى مكان الشرف القريب جدا من الوجار الذى جلس مضيفنا خلفه مباشرة ، وقد بلغ من الضعف مبلغًا لا يستطيع معة القيام وحده بشرف إعداد القهوة لنا ، ولذا قام أحد كبار الأسرة بإعداد القهوة والشاى نيابة عنه . ومن بين مجموعة الجالسين كان هناك شخص يدعى حمود ، يبدو أنه من أهل القرية ومن أقارب الأمير ، وهو الذى أدار الحديث وأثبت لنا بملاحظاته أنه كان من المهتمين بالشئون العالمية وليس من بين من يجهلونها . وتساءل حمود قائلاً : "أين عجيمى السعدون ؟ وما الذى حدث لعبد الله ولد فالح Falih هو وإخوانه ؟ هل صحيح أن الحكومة البريطانية صادرت ممتلكاتهم ؟" وزاد على كلامه الكثير من الأسئلة التى على هذه الشاكلة . كان حمود قد سافر إلى البصرة فى إحدى المهام وبدأ يهتم

اهتماماً شديداً بمستقبلها ، والأرجح أن حموداً كان يفكر فى الهجرة إلى البصرة إذا ما ضربت تشددات المذهب الوهابى جذورها فى وطنه الأحساء . وفى النهاية وزع الشاى على الحاضرين ، والحليب لا يستعمل هنا ولكنهم يضعون السكر فى براد الشاى مع أوراق الشاى ثم يتركون البراد بالقرب من النار كى يُطهى على نار هادئة ، والسائل الذى ينتج عن تلك العملية مر بشكل غير مستساغ على الرغم من السكر ، وهو يقدم فى كئوس من الزجاج ، ويجرى الإصرار على أن يتناول الضيف كأسًا ثانية وثالثة . ثم تصب القهوة بعد الشاى ، والبن المستخدم فى شرق الجزيرة العربية هو البن الهندى ، اللهم باستثناء الأسر الثرية، التى تحتفظ لديها بمخزون ثمين من حبوب البن اليمنية لاستعمالها فى المناسبات الخاصة التى يقدم خلالها ذلك المشروب الحلو النكهة للضيف مصحوباً بكل مظاهر الأفضلية البريطانية . وفى جنوب الجزيرة العربية ، مثلما سأحكى فى الوقت المناسب ، قد يرضى أفقر الفقراء بخلو منزله من البن ، غير أن الآخرين قد يسبونه ويلعنونه إن هو قدم بنًا آخراً غير البن اليمنى . وعلى الرغم من أن العربى لا يفهم الشاى أو يذوقه فإنه خبير فى القهوة بفطرته ، فالقهوة هى الشراب المنبة الوحيد عند العربى ، والسبب فى ذلك أن شرب النبيذ والدخان ممنوعان فى هذه البلاد ، والقهوة تقدم بكميات صغيرة جداً فى فناجيل من الفخار ، والفناجيل اليابانية الصنع هى الفناجيل المفضلة ، والفنجال لا يملأ إلا لضيف الشرف ، وليس كما يقال ، للعدو المكروه ، هذه هى تجربتى ، فى أضعف الأحوال فى نجد ، التى سمعت الناس فيها ، وألفاظ السباب تنهال والانتقاد يكال إلى من يسوى القهوة من أهل الحجاز . وملء الفنجال لعدوك باعتبار ذلك إشارة له بالتعجيل بالرحيل يمكن أن يكون من قبيل مسايرة السلوكيات والتصرفات المتحضرة فى المدن الكبرى – مثل مكة ، ودمشق وغيرها من المدن – ولكنه يُعد شيئًا غريباً تماماً على المجتمع البدوى وقانون "الأيام الثلاثة" الشفهى الخاص بإكرام الضيف ، ويلتزم به كل من الضيف والمضيف ، ويندر أن يخرج عليه أى منهما .

وعندما هممت بالاستئذان أخرونى بطريقتهم الودية . "تطيَّب ، يا صاحب ، هات الطيب يا ولد"،[٢٧] قال المضيف هذه العبارة ، ورأيت بعدها ولأول مرة السر البسيط

لتحضير الطِّيب ؛ قطعة من خشب الأثل ، أو إن شئت فقل خشب الطرفاء ، محلاة بخطوط من القصدير أو الصفيح ، جرى إحضارها من دولاب صغير قريب من الوجار ، ووضعوا بداخلها قليلاً من الجمرات المشتعلة ، ومن فوق تلك الجمرات وضعوا عسلوجًا ذكى الرائحة. ثم جرى نفخ تلك الجمار مرة أو مرتين ، تصاعد بعدهما حلزون رفيع من الدخان، منبعثًا من المبخرة ، التى راح الحاضرون يتناولونها الواحد بعد الآخر واضعًا إيَّاها لمدة لحظة تحت طرف غترته ثم تحت ذقنه ، وفى النهاية وقبل تمريرها إلى من يجلس بجواره يقوم بوضعها تحت أنفه كى يشم عبيقها بطريقة طبيعية جدا يصعب تقليدها أو محاكاتها . ويمرر الطيب ثلاث مرات على الجالسين ، ويقوم المضيف بنفخ المبخرة كى تتوهج فى كل مرة تصل إليه ، وبعد أن يتطيب الحاضرون يصبح من حق الحاضرين أن يهمُّوا بالانصراف .

وعلى الرغم من أن الوقت كان متأخرًا عندما عدت إلى المخيم ، لم تكن وجبة العشاء قد أعدت بعد ، وانضممت إلى حلقة الجالسين حول النار ؛ ومبلغ علمى أن أحدًا من هذه الجماعة لم يكن قد أكل أى شىء منذ أن غادروا العقير ، اللهم باستثناء علبة اللحم المحفوظ فى الليله السابقة ، وبقايا الجبن والبسكويت الذى حملناه معنا لوجبة الغذاء . وقد حرصت على توزيع ذلك الجبن والبسكويت على الأفراد ، ولم أنس المرأتين ، اللتين كان تقديرهما الواضح للطعام دليلاً كافيًا على امتنانهما الذى لم تعبرا عنه .

وفى النهاية طُهِى الطعام ؛ وكانوا قد استعاروا من القرية صينية كبيرة لتلك المناسبة ، وجرى تكويم أطراف الطلى على تلك الصينية فوق كومة من الأرز الذى يتصاعد منه البخار . وسرت همهمة بشكر الله من جميع الأفواه قائلين : "لله الحمد والشكر ، بسم الله الرحمن الرحيم" ؛ وامتدت نحو الطبق اثنتا عشرة يدًا يمنى ، لتحمل كل واحدة منها قبضة من الأرز ، لأن ذلك هو التقليد المتبع عند بداية أية وجبة من الوجبات، وتلا ذلك صراع كما لو كانت ذئاب تتصارع . ولم يحدث من قبل أو من بعد أن شاهدت مشهدًا شبيهًا بذلك المشهد الغريب العجيب لأناس جوعانين يتناولون اللحم على ضوء نور المخيم الخافت . وتراجعت أصابعى ، التى لم أستعملها منذ فترة طويلة ،

عن الأرز الذى كان يغلى ، وراحت تتحسس المواقع الباردة من الطبق ، وتحدت الأوصال الساخنة كل محاولاتى المتحفظة ، وفى حين أدت القطع التى وضعها بالقرب منى المضيفون المراعون لمشاعر الآخرين إلى التهاب لسانى وحلقى ، وفى اللحظة التى بدأ فيها الصراع ، والتمزيق ، والبلع ، رحت أعجب وأنا أشاهد كومة اللحم وهى تختفى على وجه السرعة هى وكومة الأرز ، إن كان الناس قد تركوا نصيبًا للمرأتين ، اللتين كانتا لا تقلان جوعًا عن الرجال أنفسهم .

قرية جيشة ، التى تعد أقصى المواقع الخارجية فى الأحساء من ناحية البحر ، هى قرية مهملة صغيرة تقع خارج حزام النخيل فى سهل الحجر الجيرى على ارتفاع ٢٧٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ومن حول هذه القرية يوجد سطح السهل الذى تنتشر عليه المحاجر ، التى يقتطعون منها أحجار البناء ، وبيوت هذه القرية كلها مبنية من كتل الحجر الجيرى المرصوص بشكل غير منتظم أو باستعمال الملاط المكون من خليط من الطين المضاف إليه الأسمنت أو الجص Juss (الجبس) ، والمنازل الأجود هى التى يليسونها بالجص أو الأسمنت الأبيض الناتج عن الحجر الجيرى[٢٨] الذى يجدونه فى أماكن متفرقة حول قرية طرف Taraf التى تقع داخل نطاق حزام النخيل فى اتجاه الجنوب ؛ والقرية مسوَّرة بسور قريب إلى حد كبير من القرية وله أربعة أضلاع ، ويصل ارتفاعه فى أحد أضلاعه إلى ٣٠٠ ياردة ، وبه بوابة فى كل ضلع من الأضلاع الأربعة . وشوارع القرية ضيقة ولكنها نظيفة وتخلو أيضًا من البنايات الفارهة ، وسوق تلك القرية ينعقد يوم الاثنين ، وأبعاده متواضعة ، وتباع فيه المنتجات البستانية من القرى المجاورة . وهذا هو حال جيشة بسكانها البالغ عددهم حوالى ٣٠٠٠ نسمة ، تعيش فى أمن ورخاء ، ولا يخشى أهلها الجفاف أو القحط ، ولم يعد أهلها يخافون العدو أو يخشونه بعد أن رحلت عنهم القوات التركية . ومما لا شك فيه أن ذلك هو حال كثير من قرى واحة الأحساء التى لم نرها مثل قرية عمران Amran، فى الشمال وقرية طرف Taraf فى الجنوب وبعض القرى الأخرى .

واستأنفنا مسيرتنا فى صبيحة اليوم التالى . كان المدق الضيق يتجه ناحية الغرب مخترقًا حزام النخيل ، قاطعًا ومتقاطعًا مع متاهة المجارى المائية ذات الخرير

بواسطة معديات بدائية من كتل النخيل ، أو فى معظم الأحيان عن طريق برابخ مصنوعة من كتل الأسمنت الصلبة ، وكانت تنتشر هنا وهناك غيطان البرسيم الحجازى والقمح الأخضر الداكن ، ومن حين لآخر كنا نرى شريطًا من الأرض المنزرعة بالأرز يكافح من أجل الحياة وسط مستنقع البوص ، وهذه جذوع النخيل تنتشر فى كل مكان ، وتنعكس أسفل تلك الجذوع ظلال قمم ذلك النخيل التى تنمو فيها الأشجار المثمرة والأعشاب والخضراوات .

وعلى بعد مسافة ميلين من جيشة Jisha تقع قرية جفار Jafar البيضاوية على مساحة واسعة خالية يحيط بها النخيل . وخارج أسوار تلك القرية يقع العديد من الأكشاك المصنوعة من الحصير ، شيدها أصحابها بطريقة الأكشاك التى يشيدها أهل الأحساء يوم السوق ، ومن حول تلك الأكشاك يوجد جمع من الناس المسرورين والمبتهجين يبيعون ويشترون فى الوقت الذى يقصدهم القادمون من كل الاتجاهات من القرى المجاورة جالبين معهم بضاعتهم ؛ نظرًا لأن يوم الاثنين هو يوم انعقاد السوق فى كل من جفار وجيشة ، ومن لا يجدون زبائن فى أحد السوقين يتجه إلى الآخر عبر مسافة بسيطة . وسواء جاءوا راجلين أو راكبين على ظهور الحمير أو الإبل فهم يحملون بضاعتهم على رءوسهم أو على دوابهم . كل شىء هنا قابل للتسويق : النوعيات الجيدة من التمر ، والنوعيات الرديئة تباع علفًا للماشية ، والبرتقال ، والليمون ، والقرع العسلى ، والباذنجان ، والباميا ، والبرسيم الحجازى ، والحصير المصنوع من البوص ، وسعف النخيل ، وليف النخيل . أو إن شئت فقل : كل شىء أو أى شىء تنتجه بساتينهم اليانعة . والمشترون ، معظمهم من أولئك التجار الذين يجمعون المواد التموينية ليبيعوها فى المراكز الكبيرة ، والسبب فى ذلك أننا لا نتصور أن تجد المنتجات البستانية زبائن لها وسط تلك القرى التى يقوم كل واحد فيها بزراعة بيارته أو حقوله أو بيارات أو حقول الآخرين .

وسكان جفار يُقدَّرون بحوالى ١٥٠٠ نفس ؛ وسباط Subat تلك "الكتكوت الصغير" تقع على بعد نصف ميل تقريبًا ناحية الشمال ، ويقدر عدد سكانها بحوالى ٤٠٠ نسمة ،

فى حين تقع قرية المركز Al Markaz التى يطلق عليها دومًا اسم مركاز القارة بحكم موقعها القريب أسفل تل قارة ، قد يصل عدد سكانها إلى حوالى ألف نسمة . وهناك قرى أخرى بلا شك بين البيارات على جانبى الطريق ولكنى لم أحصل على أسماء تلك القرى .

وخلف قرية جفار تقع أعظم بساتين الأحساء كلها ، وهى عبارة عن بيارات رائعة ومنظمة عامرة بأشجار البرتقال والليمون ، شديدة الخضرة وعلى شكل صفوف منتظمة وسط أبهاء جذوع النخيل العظيمة . هذه هى مرضية Mardhiyya التى كانت فى يوم من الأيام من ممتلكات السلطان العثمانى وأصبحت تعرف الآن باسم بيت المال ، وهى من الممتلكات الخاصة بالملك الوهابى . وقد خلَّد أبو ليلى ذكراها برواية خيالية عمرها سنوات طوال ، عندما شغف مالك تلك المدينة الأول حبًا بجمال امرأة من نساء الهفوف ، والتى لا تزال على قيد الحياة تنعم بثمار صفقتها السهلة ، قايضت فيها ليلة واحدة من السعادة بحق الولادة المكتسب لأطفالها وامرأة أخرى لم ألاحظ اسمها ابنة واحد من تجار الهفوف الذين يعتنقون المذهب الجعفرى[٢٩] . وينساب خلال تلك البيارات مجرى برابار Barabar المائى الرئيسى ، الذى يشكل مع مجريين آخرين ، هما السليسيل Sulaisil والوجاج Wajjaj المصدر الرئيسى فى منظومة الرى فى ذلك الجزء من واحة الأحساء .

ويصل عمق حزام النخيل إلى حوالى أربعة أميال من الشرق إلى الغرب ، أما من الشمال إلى الجنوب فلا يقل عمق ذلك الحزام عن ضعف هذه المسافة ، وحول هذا الحزام توجد الصحراء التى ترتفع ناحية الغرب ارتفاعًا مفاجئًا يصل إلى أربعين أو خمسين قدمًا ، مشكِّلة بذلك هضبة منخفضة جرداء ، يقع خلفها هى أيضًا حزام آخر من النخيل - واحة الأحساء الأساسية - على مستوى أعلى من المستوى الأول . ومبلغ يقينى أن منطقة الأحساء[٣٠] تتكون من هاتين الواحتين ، الواحة الشرقية والواحة الغربية ، اللتين يصل فارق مستوى الارتفاع بينهما إلى أكثر من مائة قدم ، كما تصل المسافة من أقصى الواحتين إلى أقصاهما عبر الهضبة التى تتوسطهما إلى حوالى ميلين . والطريق يبتعد عن الواحة الشرقية متجهًا إلى الهضبة عند قرية فضول Fudhul

المسوَّرة ، والشبيهة بالدائرة ، وتقع على حافة محجر من محاجر الحجر الجيرى التى يجرى استغلاله استغلالاً كبيرًا ، وعلى مسافة ميل واحد فى اتجاه الشمال الغربى وعلى حافة منطقة النخيل تقع قرية المنيزلة Munaizila الصغيرة . وهنا تطل صخور بريقة Buraiqa غير المتناسقة شامخة فى اتجاه الشمال ، فى حين تقع قرية قارة Qara على مسافة أقرب ناحية الشمال الشرقى ، ويستر حزام النخيل جزءًا منها . وعدد سكان فضول قد يصل إلى حوالى ١٠٠٠ نسمة ، وسكان المنيزلة على حد معرفتى من ذلك المنظر البعيد يُقدرون بنصف عدد سكان قرية فضول . ويقال إن قرية طرف Taraf، التى لم أشاهدها قط ليست أصغر من جيشة ، وهى تشتهر مثلما قلنا بالحجر الجيرى ذى النوعية الممتازة . وترف تشارك فضول فى مياه مجريىْ الوجَّاج Wajjaj والسليسيل Sulaisil ، هذا فى الوقت الذى تعتمد فيه مستوطنات الجزء الشمالى من الواحة على مياه مجرى برابار Barabar المائى . على العموم فنحن عندما نسلم بوجود قرى أخرى غير القرى التى ذكرناها وعندما نسلم أيضًا بوجود سكان فى المساكن البستانية المنعزلة يمكن لنا أن نقدر إجمالى عدد سكان الواحة الشرقية بحوالى ١٥٠٠٠ نسمة ، ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن قسمًا كبيرًا من بساتين تلك الواحة الشرقية مملوك لتجار الهفوف وبعض السكان الآخرين .

والهفوف نفسها عاصمة الأحساء تقع على ارتفاع ٤٧٥ قدمًا فوق مستوى سطح البحر فى الطرف الجنوبى من الواحة الغربية ، وطريقنا ينحرف قليلاً ناحية الجنوب عن غرب قرية فضول ليسير عبر قطر الهضبة ، والطريق بعد أن يتجاوز بربخًا مبنيًا على مجرى الوجاج المائى سريع الجريان الذى تأتى مياهه من عين فى الواحة القريبة تتخلله سلسلة من أبراج المراقبة التى جرى التخلى عن معظمها منذ رحيل الأتراك . ويشهد الخراب التى هى عليه بالسلام والأمن الذى يسود هذه المنطقة حاليًا ، وذلك على العكس تمامًا من الفوضى التى كانت سائدة فى تلك المنطقة أيام الحكم التركى ؛ فقد كان الباشوات الأتراك ينتقلون من موقع إلى آخر فى صحبة الحراسة العسكرية ، وكان القرويون يتحاشون الطرق الرئيسة التى لا يقل بل يزيد طمع وجشع رعاة السلام عليها عن طمع وجشع مقيضية .

وبعد أن عبرنا الهضبة وصلنا إلى حافة الواحة الغربية عند برج حراسة عويمل Uwaimil بعد مسير دام أربعة أميال ، زدنا عليها ميلاً آخر سرناه خلال بيارات النخيل المسورة ، ووصلنا بعد ذلك إلى الفضاء الواسع على الجانب الآخر الذى كانت قبة مسجد إبراهيم باشا البيضاء تبدو فيه مرتفعة من بين أسطح الهفوف المستوية ، ولا تبعد كثيراً عن البوابة التى دخلنا منها خلال لحظات قليلة إلى الرِّفاع Rifa' أو إن شئت فقل : الحى الشمالى الشرقى من المدينة ، لنعبره هو ومنطقة سوق الخميس الواسعة التى تفصل الرِّفاع عن الكوت Kut ، أو إن شئت فقل القلعة مقصدنا ومقر مركز رئاسة الحكومة المحلية .

أقمنا فى الهفوف مدة يومين إلى مساء اليوم الحادى والعشرين من شهر نوفمبر ، ثم بدأنا التحرك إلى أرض المخيمات بالقرب من قلعة خيزام استعداداً لاستئناف رحلتنا فى وقت مبكر من صبيحة اليوم التالى لنقطع الرحلة الصحراوية التى كانت تنتظرنا . وطوال تلك الفترة أقمنا فى شقة واسعة تماماً ولكنها كانت قليلة التأثيث ، خصِّصوها لاستعمالنا فى الطابق العلوى من واحد من عدة أحواش يتكوَّن منها السراى Sarai ، ذلك الاسم الذى يطلقه الأتراك على كل ديوان من دواوين الحكومة . وعندما وصلنا إلى بوابة السراى استقبلنا بعد أن نزلنا من فوق الإبل محمد أفندى ابن على مدير إدارة الإيرادات ، ثم رحب بنا بعد ذلك بدقائق قليلة عند أعلى الدَّرج (السلم) المؤدى إلى شقتنا ، عبد الله بن جلوى شخصيًا أمير الأحساء كلها بما فى ذلك القطيف والجبيل وعقير التى يعد المشرف العام على أمرائها ، وعبد الله ابن جلوى هو ابن عم ابن سعود من جيل سابق ، ووالد عبد الله هو جلوى شقيق فيصل الكبير . وبعد أن أوصلنا عبد الله إلى غرفة الجلوس (المجلس) التى مكث معنا فيها بضع دقائق ، ودار بيننا وبينه خلالها حديث رسمى استأذن منصرفًا ، واختفى عنَّا من خلال باب صغير يصل حوشنا بحوش المواطنين ، وترك معنا سكرتيره خليل أفندى ، وهو تركى من الصلاحية Salahiyya فى ولاية الموصل ، وهو مثل محمد أفندى أثر من آثار الإدارة التركية السابقة ، تركه عبد الله معنا ليلبى لنا حاجاتنا .

وفى ساعة متأخرة من المساء استدعانا الأمير إلى مجلسه ، وفى أثناء مرورنا أدخلنا خليل أفندى ، من خلال صالة ضيقة يقف على جانبها صف من العبيد ، يلبسون زيًا مرحًا موحدًا وطويلاً يطلقون عليه اسم الزّابون ، مصنوع من القطيفة نارية اللون ، ويتسلح كل واحد منهم بسيف . ودخلنا بعد ذلك غرفة طويلة ضيقة ، مرصوصة فيها صفوفٌ من الكراسى والأرائك الطويلة ، وينهض واقفًا لاستقبالنا عبد الله الذى كان يجلس فى الجانب الآخر من تلك الغرفة . وقدم أحد العبيد القهوة على صينية اتجه العبد بها إلىَّ أولاً بناءً على إشارة من سيده ، ولم استحسن ذلك التكريم وأومأتُ برأسى فى اتجاه الأمير الذى قاطع ذلك الاحتجاج المؤدب بعبارة وجيزة "ما تشرب" مصحوبة بتحريك طرفى فمه بطريقة آمره ، ورضخت لذلك وتناولت فنجال القهوة وتناول فنجالاً من بعدى ، وبإصرار منه سرى ذلك النظام فى شرب القهوة كلما اجتمعنا سويا .

وعبد الله بن جلوى متوسط العمر ومتوسط الطول أيضًا ليس بدينًا ولا نحيفًا ، ولحيته كاملة سوداء قصيرة ، وهو حذر ضعيف الملامح مقطب الوجه ، ليس ضحوكًا ، ويتكلم بطريقة رسمية ، والأهالى يعدونه عظيمًا من عظماء الجزيرة العربية الحديثة ، ترتيبه الثانى ، بعد مليكه فى الأراضى الوهابية . وهو اعتبارًا من ذلك اليوم المشئوم من العام ١٩٠٠ الميلادى[٣١] ، عندما وقف إلى جانب ابن عمه الأصغر فى المخاطرة البائسة التى أعادت الأسرة المالكة السعودية إلى عرش الرياض ، أصبح يحظى بثقة ابن سعود التى لا تعرف الحدود . وكان عبد الله بن جلوى طوال فترة الصراع الذى أعقب استعادة العاصمة بمثابة ذراع مليكه اليمنى وناصحه ومستشاره الأمين ، وجرى تعيينه أميرًا على القصيم بعد أن جرى اقتطاعها من ابن الرشيد ، وبقى عبد الله يشغل ذلك المنصب الحساس والدقيق الذى أنجز مهامه بنجاح واضح إلى عام ١٩١٤ الميلادى عندما استدعاه ابن سعود إلى الأحساء لإعادة النظام إلى ذلك البلد بعد الفوضى التى ترتبت على سوء الحكم التركى . بعض الرجال تقحم عليهم العظمة وعبد الله بن جلوى واحد من أولئك الرجال ، ولما كان عبد الله من النوع المتواضع والخالى تمامًا من الطموح فهو لا يتطلع إلى أى شىء سوى الحياة المسالمة الهادئة فى ربوع وطنه ، وقد كتبت عليه مزاياه هذه النفى شبه المستمر فى

مناطق الحدود البعيدة ؛ ففى الأحساء أثبت أنه لا يمكن الاستغناء عنه ولم يسمح له بترك منصبه ولو للحظة واحدة. من هنا ، فقد ارتكز عبد الله بن جلوى على مشيئة العناية الإلهية وعلى ولائه وضميره الحى وبدون حماس أو تهور ، وراح يكرس نفسه عامًا بعد عام لإنجاز مهام منصبه ؛ مقسمًا بذلك وقته بين الترويح عن حريمه وأداء مهام الدولة ، إلى حد أنه من النادر – إن لم يكن يفعل مطلقًا – أن يغادر جدران القلعة (كوت) الأربعة ، إلى الحوش الواسع الذى يسمح للجميع بالدخول إليه ، والذى يستمع فيه عبد الله بن جلوى إلى شكاوى المواطنين ويبت فيها ، كما يتلقى فى ذلك الحوش أيضًا تقارير عن أعمال المواطنين وعن مخالفاتهم . وفى المنطقة التى تمتد من منطقة الحدود مع الكويت إلى أقاصى كل من جبرينJabrin وجافورة Jafura فى رمال الجنوب يثير ذكر اسم عبد الله بن جلوى الرعب الحقيقى ، وتسرى معاملاته المكتوبة بلا قيد أو شرط ، كما أكسبته عدالة الأحكام التى يصدرها وتنفيذه السريع لتلك الأحكام الرادعة شهرة ذاع صيتها بين الناس . وبلا خوف أو محاباه يقيم عبد الله بن جلوى إدارته على أساس من مبدأ Parcere subiectis et debellare superbos ، وإذا صحّ ما يقولونه عن الاضطرابات القبلية التى حدثت فى الأحساء فى الماضى فإن السلام والنظام والأمن الذى تشهده هذه المنطقة فى هذه الأيام يعد أقوى دليل على نجاح أسلوب الحكم الذى يسير عليه ذلك الرجل .

حدث ذات يوم – وقد حضر عبد الله مجلسًا من مجالسه الشعبية – أن دخل عليه رجل فقير من أهل الهفوف . وولول الرجل بالخطاب المعتاد قبل أن يبدأ فى عرض قضيته قائلاً: "طوَّل الله عمرك ، يا الأمير !" واستطرد الرجل قائلاً : "كنت أسير فى الشارع العام وفاجأنى من الخلف رجل كان يركب حصانًا وأنا لم أره ولم أبتعد عن طريقه ، وفجأة ! ضربنى بعصاه وسبنى . العدل ، أيها الأمير !".

"ومن هو الذى كان يركب الحصان ؟"

"يا طويل العمر! ابنك ، فهد".

"أرسلوا ، فى طلب ولدى ، فهد" ، وعندما ظهر فهد تساءل الأمير قائلاً : "أهذا هو الرجل الذى ضربك ؟ وهل هذه هى العصا التى ضربك بها ؟" ورد العجوز قائلاً : "إى ، بالله !" وسأل عبد الله ولده الأكبر قوى البنية ، الذى يبلغ من العمر حوالى ثمانية عشر

عاماً : "هل ضربته ؟" ويرد الابن : "إى ، بالله !" ويحول عبد الله بصره ناحية العجوز ويقول له : "إذن تناول هذه العصا واهوِ بها على الصبى بكل قوتك، وإلا ، بالله ! سوف يهوى بها أولئك العبيد إلى أن تصرخ مرة أخرى ." وسجد العجوز عند قدمَىْ الأمير وراح يرجوه الصفح عن بذاءته ، ورجاه أن يجنبه عار رفع يده على واحد من آل سعود . وهنا أمر عبد الله ولده قائلاً : "تقدم هنا ، ضب بشتك"[٣٢] . وبيديه ألبس المدعى عباءة ولده وأرسله لحال سبيله بعد أن أعطاه مبلغًا من النقود على سبيل الهدية .

وفى مرة أخرى جاء قروى يشكو من أن بدوياً كان يمر ومعه جمله على حقل ذلك القروى غير المسور والمزروع بالبرسيم الحجازى ، وأن ذلك البدوى حول اتجاه الجمل إلى حقل البرسيم ليرعى فيه بالرغم من اعتراض القروى . وأرسل الأمير فى طلب المتهم الذى أنكر الاتهام الموجه إليه . وهنا قال الأمير عبد الله : "حسن ، إن الأمر فى غاية البساطة ؛ إذن ، فسوف يذبح الجمل ، وإذا ما وجدنا البرسيم فى كرشه فإن المدعى سوف يحصل على لحم الجمل تعويضًا له عن الضرر الذى أصاب محصوله ، وإذا لم نجد البرسيم فى كرش الجمل فإن المتهم سيحصل على ثمن الجمل من المدعى على سبيل التعويض ."

هذه هى بساطة حكمة الأيام والمعرفة العميقة للطبيعة البشرية ؛ ومع ذلك فإن عدل سليمان وحكمته تستثير مزيداً من الثناء بدلاً من المحاكاة والتقليد ، وفقهاء الإسلام فى الجزيرة العربية يدينون الطاغوت ، أو إن شئت فقل : القانون البدوى العرفى الشفهى غير المدون ، لا لمزاياه وإنما لأنه من أعمال الجاهلية[٣٣] ، التى سبقت اتباع وممارسة العقيدة السليمة .

ومصطلح الأحساء Al Hasa معناه "الحجر الجيرى" وهو لا ينطبق إلا على سهل الحجر الجيرى الواقع بين منحدر الصمَّان Summan الصحراوى وحزام الرمل الشرقى، وهو ينطبق بصورة أكثر تحديداً على المنطقة المجاورة بالفعل للواحتين التوأم ؛ والمصطلح من الناحية الإدارية يستعمل استعمالاً واسعًا ليشمل كل المنطقة الخاضعة لسلطة الأمير . والواحة الغربية وحدها هى التى تحمل اسم الأحساء Al Ahsa المميز الذى يدل

على "الهمس" أو "الهمهمة" الصادرة عن المجارى المائية التى وفرتها الطبيعة لرى الأراضى الخصبة فى الواحة . وكلمة "حسا" فى نجد هو مصطلح لكل الصخور أو الأحجار ، أما الكلمة "حجر" فهى نادرة الاستعمال أو قد لا تستعمل مطلقًا ، ويجرى تمييز أنواع الصخور من ألوانها وليس بمكوناتها المادية ؛ ومن هنا فهم يقولون للجرانيت الأحمر "حسا أحمر" ، أما البازلت ، والجرانيت الرمادى ، وكذلك الصخور البركانية فيقولون لها "حسا أسود" ، والحجر الأخضر يقولون له "حسا أخضر" ، إلخ . ومبلغ علمى أنى لم أسمع قط اسمًا محددًا لأى نوع من أنواع الصخور ، يضاف إلى ذلك أن البدوى العادى لا يخطئ مطلقًا اسم أى نبات من النباتات ، والبدوى عندما يركب دابته تتركز عيناه على الأرض ، بحثًا عن علف لركوبته من ناحية وقصًا أيضًا لأثر العدو المحتمل ، وعندما يقع بصره على شىء من العشب المفضل ينزل عن دابته ؛ إذ إن الجمل الذى يركبه هو كل ثروته وشغله الشاغل ، وهو يشعر بالسعادة كلما حصل ذلك الجمل على الطعام بالرغم من أنه هو نفسه قد يسير بغير طعام .

والهفوف التى تضم ٦٠٠٠ منزل شهير ، والتى لا يقل عدد سكانها كثيرًا عن ٣٠٠٠٠ نسمة هى ، إلى حد بعيد ، أكبر المدن من بين ممتلكات ابن سعود ؛ ومدينة الهفوف بيضاوية الشكل تقريبًا ، ويحيط بها سور لا مثيل له فى ارتفاعه ، مبنى من كتل الحجر الجيرى الذى جرى جلبه من المحاجر المحلية ، وهو مليَّس بالطين فى بعض أجزائه . والمدينة تقع بين الشمال الغربى والجنوب الشرقى ، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية : هى حى الكوت ، وحى الرفاع ، ثم حى النياثل Nayathil التى يمكن أن نضيف إليها ضاحية الصالحية ذات الجدران . والحائط الغربى الذى يلتصق تمامًا مع بيارات النخيل لا توجد به بوابة معتادة ، ومهدم فى بعض أجزائه ، ومخرَّم بطريقة غير رسمية فى بعض البساتين . والحائط الجنوبى توجد به بوابة واحدة يطلق عليها اسم باب نجد ، وهو منفذ المرور الوحيد من الداخل وإليه . والحائط الشرقى توجد به بوابتان، باب الصالحية ، على الطريق القادم من طراف Taraf فى الواحة الشرقية ، ويخترق الضاحية التى يحمل اسمها ، وباب جيشة الذى دخلنا منه شأننا فى ذلك شأن كل القادمين من مرافئ الأحساء . وأخيرًا الحائط الشمالى وبه أيضًا بوابتان ،

إحداهما تسمى باب إبراهيم باشا ، الذى يؤدى مباشرة إلى الكوت فى المنطقة المجاورة للجامع الكبير والقلعة التى تحمل اسم الحاكم المصرى المناب السابق[٢٤] ، على حين يؤدى باب الخميس كما يوحى اسمه إلى الساحة الواسعة التى ينعقد فيها سوق الخميس الذى يشق المدينة طوليا إلى أن يصل إلى منتصفها ، والذى يطلق عليه اسم الحميدية التى هى بمثابة قاعة للمدينة منذ أيام العثمانيين ، ولكنها تحولت اليوم إلى مستودع لتخزين ممتلكات بيت المال ، ويوم أن زرناها كانت عبارة عن مستودع كبير لتخزين التمور ، يُسمع من حوله أزيز الدبابير التى كانت تدخل إليه من خلال الفجوات الموجودة فى النوافذ.

سوق الخميس عبارة عن شارع مترب واسع يصل عرضه إلى حوالى ٥٠ ياردة ، أما طوله فيقدر بحوالى مائة ياردة ، والسوق من الناحية الغربية يحف به من أوله إلى آخره الخندق وسور الكوت الذى يمكن الدخول إليه من هذا الجانب عن طريق بوابة محصنة تحصينًا جيدًا بحواجز حديدية مشبَّكة فى البوابة . وعند ناصية الكوت بالقرب من الحميدية يوجد برج مرتفع ، يمتد منه جدار مرتفع ناحية الغرب إلى أن يتصل بسور المدينة الخارجى . وحى الكوت يشكل بذلك قلعة مربعة الشكل داخل مدينة محصنة ، وبداخل ذلك الكوت يوجد السَّراى ، ومسكن الأمير الخاص ، ومنازل بعض المسئولين الآخرين ، والقلعة ، وجامع إبراهيم باشا ، كما يوجد بالكوت أيضًا سجن ، وعدة صفوف من المنازل العادية ، ومحلات مختلفة الأنواع ، وعلى ذلك يكون الكوت كاملاً بحد ذاته ومزوَّدًا تزويدًا جيدًا تحسبًا للطوارئ التى قد تنتج عن الحصار حسب مقتضيات الحال فى زمن الحكم التركى ، سواء أكان ذلك الحصار من الداخل أم من الخارج ، أو إن شئت فقل : متراس للمدينة فى مواجهة الغزو الأجنبى وملاذًا للحامية فى حال الثورة الشعبية . وبالرغم من كل قدرات الأتراك فى نظريتهم الدفاعية فشلوا فى توفير الضمانات الكافية اللازمة لمواجهة إهمالهم هم أنفسهم ، ففى ليلة معلومة من ليالى ربيع عام ١٩١٤ الميلادى ، استيقظ الحراس النائمون من نومهم فى ظروف أصبحت المقاومة معها أمرًا ميئوسًا منه وبلا جدوى ، فقد قام مائة من المتهورين الوهابيين الذين لم يرتَبْ الأتراك فى وجودهم فى المدينة بمطاردة الضباط الذين

أصابهم الرعب والفزع هم ورجال الحامية التركية أمامهم ، ومع طلوع الفجر كانوا قد استولوا على الكوت كله باستثناء جامع إبراهيم باشا الذى هرب إليه القائد هو وضباطه ومعهم زوجاتهم وأسرهم ، وكذلك أيضاً أناس آخرون من الحامية ، كانوا قد هربوا إلى الجامع فى أثناء الفوضى التى جرت فى الليل ، وتجمعوا كلهم فى الجامع استعداداً لمقاومة الغزاة . وبقى على الحياد أهل الهفوف الذين لم يرغبوا فى استمرار الحكم التركى ولا فى السيادة الوهابية ، ولكن بوابات المدينة والكوت انفتحت لابن سعود فى صباح اليوم التالى بفعل رجاله ، وجاء تعامله مع الموقف تعاملاً مشهوداً ؛ فقد جرى على وجه السرعة بث لغم تحت أرض الجامع ، وجرى تجميع كل البارود المتوفر ووضعه ضمن اللغم ، وتلقى القائد إنذاراً صيغت كلماته صياغة مهذبة . ولم يتردد القائد طويلاً فى الخيار بين الاستسلام بلا قيد أو شرط والموت المفاجئ .

وبهذه الطريقة وبدون إراقة نقطة دم واحدة أصبح ابن سعود سيداً على مدينة الأحساء ، وخرجت الحامية التركية بدون إزعاج ولكن تحت الحراسة إلى أن وصلت إلى الشاطئ الذى استقلوا منه سفينة إلى البحرين . واستسلمت حامية القطيف وحامية العقير بلا مقاومة ، وعوملتا بالطريقة السابقة نفسها ؛ وبذلك اختفت آخر نقاط السيطرة التركية من مناطق الخليج إلى الأبد .

وسوق الخميس يظل مهجوراً طوال أيام الأسبوع باستثناء أيام الخميس التى تنصب فيها الأكشاك الصغيرة المصنوعة من حصير البوص على شكل صفوف ويفد إليها البائعون والمشترون بالآلاف لحضور السوق الأسبوعية . وفى ذلك السوق تجرى تجارة رائجة فى التمور ، والحاصلات البستانية بكل أنواعها ، وفى اللحم ، وبخاصة أفخاذ الجمال الحمراء ، وقطعان الماعز والأغنام ؛ ولأن الأسر كلها هنا تأكل اللحم طوال أيام الأسبوع ، ولأن الفقراء لا يأكلونه إلا يوم الجمعة ، اليوم الذى تقام فيه صلاة الجمعة ، وهو اليوم أيضاً الذى يتسوق رب الأسرة فيه مقاضى بيته ؛ فالأسعار هنا ليست ثابتة وكل شىء يباع ويشترى بطريقة المساومة (المكاسرة) ؛ ولا تباع عنزة أو خروف إلا بعد أن تجسها وتفحصها أيادى الخبراء .

والقيسارية تقع ناحية الجانب الشرقى من السوق ، والقيسارية متاهة كبيرة من "البواكى" المسقوفة أو المكشوفة التى توجد فيها الدكاكين الرئيسية : البقالون ، وباعة القبعات ولوازمها ، وباعة لوازم الخياطة ، وتجار الأقمشة ، وباعة السجاد ، وصناع المعادن ، وصناع أطقم الخيل ولجمها ، وتجار العملة وما إلى ذلك . والحضر والبدو يتجولون طوال اليوم فيما عدا أوقات الصلاة بين تلك الدكاكين بحثًا عن الصفقات شوقًا إلى الشراء ، ولا يهدأون طالما كانت لديهم النقود التى ينفقونها . والجزء الأكبر من البضائع التى فى تلك الدكاكين يأتى من الهند ، ويدعمها التجار بالأشغال المعدنية المحلية ، وكذلك المشغولات الخشبية ، والمشغولات الجلدية ، ودلال القهوة ، والأخراج ، وسروج الخيل ، والمباخر ، والنعال ، وأخيرًا وليس آخرًا ، البشوت السوداء المزينة بياقات من خيوط الفضة أو المزركشة بخيوط الذهب والتى تشتهر بها الأحساء وحدها . وفيما عدا ذلك الاستثناء الوحيد لم يكن فى ذلك المكان شىء ذو قيمة فضلاً عن ارتفاع الأسعار .

وحى الرفاع يشتمل على القيسارية ويشغل الجانب الشرقى كله فى المدينة ، وتوجد فى ذلك الحى منازل التجار ، ومنازل الأثرياء . وشكل المبانى فى هذا الحى يوحى بالتواضع الكامل من الخارج ؛ فهى مبنية من الحجر الجيرى الشائع فى هذه المنطقة ، والمليس بالجبس أو بالطين ، ولكن هذه المنازل فارهة من الداخل اعتمادًا على قدرات أصحابها . ومن سوء الطالع أننى لم أستطع بسبب ضيق الوقت رؤية أى منزل من تلك المنازل من الداخل وذلك باستثناء السَّراى Sarai .

وحى الكوت هو والرفاع ربما يشغلان ثلاثة أخماس المدينة كلها ، أما الجزء المتبقى أو إن شئت فقل : القسم الجنوبى الغربى من المدينة فهو بشكل ما يطلق عليه اسم النياثل Nayathil أو إن شئت فقل الحى الفقير المكتظ بالسكان . والشوارع ضيقة فى هذا الحى وليست مطروقة مثل سائر الشوارع الأخرى ، والمنازل أقل رونقًا لافتقارها إلى الطلاء بالجبس ، فى حين كانت تبدو خربة . ويفصل حى النياثل عن حى الرفاع شارع ضيق ، يمتد من الحميدية إلى منطقة واسعة يطلقون عليها اسم القرن Al Qirn وتقع أمام بوابة نجد .

وضاحية الصالحية التى تقع خارج سور القسم الجنوبى الشرقى من المدينة ، حديثة العهد ، ويُشتق اسمها من اسم القلعة التى بناها الأتراك لحماية المدينة من ذلك الجانب . وسكان تلك الضاحية السابقون كان معظمهم من الضباط والمسئولين الأتراك هم وعائلاتهم والذين لم تتوفر لهم الإعاشة الكافية أو المناسبة فى حى الكوت المكتظ . ومحمد أفندى هو وخليل السكرتير ومعهم قلة قليلة أخرى من بقايا العهد القديم ، متأصلون فى التربة التى اختاروها ، يكفلون أنفسهم بحماس الأيام الخوالى نفسه ، يخدمون أسيادهم الجدد بإخلاص لا يقل عن إخلاصهم لأسيادهم القدامى ؛ لقد ضاع وولى كل شىء ونصت الشريعة الإسلامية السمحة على كفالة الزوجات والعائلات التى راحت تحيى تلك الأيام الموحشة ، فقد كانوا يتجولون خلالها فى أراض بعيدة .

وإدارة المدينة العربية غاية فى البساطة فهى خالية من التعليم ، والتصحاح ، والإضاءة ، وبالتالى ليست هناك مصروفات أو ضرائب فيما عدا ذلك الذى يمكن أن نطلق عليه الحساب "الإمبراطورى" . والأحساء فى هذا الصدد ، هى بقرة الإمبراطورية الوهابية الحلوب ، فهى المنطقة الوحيدة – وربما القصيم إلى حد ما – اللتان تحققان بعد دفع نفقات الإدارة المحلية فائضًا كبيرًا للخزانة المركزية . والمصدر الرئيسى للدخل هو الجمارك[٣٥] ، والمكوس ، والزكاة أو إن شئت فقل ضريبة الأرض . والزكاة تجىء بمقدار العشر من إجمالى إنتاج المحاصيل الأساسية مثل التمور والقمح والأرز وتدر على الخزانة دخلاً سنويًا يقدر بحوالى ستة لاكات روبية ، أما الزراعات الثانوية مثل الفواكة ، والخضراوات ، ومحاصيل علف الماشية وما إليها ، معفاة من الضرائب ، وأراضى التاج هى والحيازات الكبيرة الأخرى لا تدفع إيجارًا . ونظام كهذا يخلو كما يبدو من مبادئ التقييم العلمى ، تكون له ميزة إعطاء التشجيع المطلوب لمستأجرى الأرض كى يقوموا بتحسين حيازاتهم ، ويضعوا فى اعتبارهم متطلبات السوق ، فى الوقت الذى يعد تحسبًا كبيرًا للوسيلة الفريده غير العادلة تمامًا التى يفضل الأتراك اتباعها فى بعض أجزاء بلاد الرافدين وبخاصة فى أراضى نهر الفرات المنخفضة والتى تصنف أراضى النخيل فيها على أنها أراضٍ خراب (أى غير مزروعة) ، نظرًا لأن المحاصيل الثانوية لا تزرع فيها ، وتفرض عليها معدلات

زكاة أعلى من المعدلات التى تفرض على الأرض العمار (المنزرعة) ، والتى تزرع فيها الخضراوات وأشجار الفاكهة إلى جانب النخيل ، ويجرى تحسين مصادر دخل الخزانة التى تضيع بهذه الطريقة عن طريق فرض ضرائب تسمى ضرائب الخضراوات ، وهى لا تفرض على كل أنواع الخضراوات المزروعة وإنما على الخضراوات التى يجرى جلبها إلى الأسواق فى المدن . والهدف من ذلك تشجيع زراعة الخضراوات وهو هدف ممتاز ولكن أفضل النوايا لا تستطيع تغيير أو تعديل السياسة السيئة ، ومن المعروف أن الحالة الأخيرة التى تسمى البساتين الخراب أسوأ من الحالة الأولى . ويضاف إلى مصادر الدخل هذه ضريبة أخرى مقدارها ريال واحد تفرض على كل جمل يدخل مدينة الهفوف ، وعلى كل كشك من الأكشاك التى تجرى إقامتها فى يوم السوق ، وفى الأيام الأخرى غير أيام السوق تفرض ضريبة أرضية بمعدل ريال واحد كل شهر عن كل نوع من البضاعة داخل الكشك .

وتحصيل الضرائب موكل إلى محمد أفندى المواطن الموصلى الذى جرى اختياره بعد خدمة دامت مع الأتراك ثلاثين عامًا للبقاء فى منصبه بعد سقوط الأحساء ، وهو يتقاضى مرتبًا مقداره ٢٠٠ ريال فى الشهر ، علاوة على المستلزمات الأخرى التى يضيفها على حسابه أو لصالحه . ومحمد أفندى لا يُساءل طالما قدم موازنة تبدو مقنعة ، وطالما حول مبالغ كبيرة بصورة منظمة إلى الرياض . والنظام السائد الذى يقوم على التقدير السنوى لقيمة الحاصلات يعطى من يعمل على أرض الواقع – أو إن شئت فقل : من يقوم على تحصيل هذه الضرائب – مجالاً واسعًا ، فقد همس لى الحاسدون لأولئك المحصلين من الرياض بأن حساباتهم لا تتحمل التوتر الناتج عن المراجعة المحترفة . وابن سعود هو وزير ماليته الخاص ، وهو بنفسه الذى يشرف على الإنفاق من الخزانة بكل تفاصيله ؛ ولكنه لا يخطر بباله مطلقًا أن خزانته ربما تمتلئ أكثر وأكثر إذا ما أخضع إدارة متحصلات ممتلكاته للإشراف العلمى . ومحمد أفندى هو الحارس الحاقد الذى يقوم على أمر أسرار الأحساء المالية ، ويساعده فى ذلك ملازمه خليل ؛ وهذان الاثنان إذا ما أبعدا عن وظيفتيهما سوف تعقب ذلك فترة من الفوضى المالية . والضرائب يجرى تحديدها عينيا وتدفع إما عينيا أو نقدًا ،

وأمير كل وحدة من مستوى القرية هو المسئول عن جباية ودفع الضرائب المستحقة من أهل قريته ، وهذا يوفر على القروى الأعباء المترتبة على وكالة التحصيل الرسمية ، بل إن أعمال تقييم المحاصيل موكولة أيضًا إلى سلطات القرية ، وتخضع للتفتيش الرسمى حسب ما يراه المدير .

وعلى بعد مسافة ثلاثة أو أربعة أميال إلى الشمال الغربى من الهفوف تقع مدينة المبرَّز الشقيقة التى يصل تعداد سكانها إلى ما يقرب من ٢٠٠٠٠ نسمة ؛ وهذه المدينة ليس لها رُواء العاصمة ، فشوارعها ضيقة ومتعرجة ، ومنازلها مبنية من الحجر الجيرى الذى لا مفر منه ، ومنخفضة وغير مطلية بالجبس ، والسور الذى يحيط بالمدينة بدون أبراج ، وبوابات ذلك السور عبارة عن فجوات عديمة الشكل ، وتوجد بوابة فى كل ركن من أركان السور الأربعة . وبعد البوابة الشرقية من الداخل يوجد فضاء ضئيل يمتد بطول جانب من الأجناب ، وهو الذى يقع عنده بيت الأمير محمد بن ثنيان الذى زرته فى إحدى المرات التى خرجت فيها من مدينة الهفوف طلبًا للتنزه . ولأنهم أخطروه بوصولى ، فقد خرج ممتشقًا سيف الحكم ويحيط به بعض أتباعه ، واقتادنى إلى مقعد من الطين مفروش عليه حصير ويبعد قليلاً عن الجدار الذى يستعمله مقعداً للحكم فى أثناء انعقاد المجلس الخارجى كل يوم . وجرى صب الشاى والقهوة وتوزيعهما على الجالسين الذين تجمعوا لرؤية الغريب . والأمير من أهل البلدة ، وهو يدير أمر هذه البلدة تحت إشراف عبد الله .

وأنا لم يتوفر لى الوقت الذى أستطيع معه زيارة قرى الواحة الغربية . ومن بين القرى الأخرى قرية رُقَيْقة Ruqaiqa التى تبعد حوالى ميلين إلى الجنوب الغربى من الهفوف ، وقرية شاهرين فى اتجاه الشمال على الحافة الشرقية للواحة ، وقد شاهدت القريتين من مسافة قريبة ، كما شاهدت أيضًا قرية المطيفى وجليجلة Julaijila ؛ أما بقية القرى فلم أعرف سوى أسماء[٣٦] القليل منها ، ولكن من السهل أن نقدر إجمالى عدد سكان القرى البعيدة فى ذلك القطاع بما لا يزيد عن ١٠٠٠٠ نسمة ، وهذا الرقم يصل بإجمالى سكان الواحة الغربية إلى حوالى ٦٠٠٠٠ نسمة ؛ وبذلك يرتفع عدد سكان

الأحساء بكاملها إلى حوالى ٧٥٠٠٠ نسمة . ولم تتح لى فرصة زيارة القطيف والجبيل وتقدير عدد سكانهما ، ويمكن أن يكون فى حدود ٢٥٠٠٠ نسمة . وإذا كانت تلك التقديرات - وكلها تقريبية بالضرورة - تتسم بالصحة إلى حد ما ، فذلك يعنى أن غزو ابن سعود للأحساء أضاف حوالى ١٠٠٠٠٠ نسمة إلى سكانه الذين يستوطنون الأراضى الوهابية ، وهؤلاء السكان الجدد يشكلون عائقًا من عوائق التزمت والهرطقة ، والسبب فى ذلك أن نسبة كبيرة من سكان الأحساء ، وغالبية سكان القطيف يعتنقون المذهب الشيعى ، بين جماهير وسط نجد الملتزمة وجماهير الدنيا الخارجة عن نطاق معرفتهم .

وتتمثل ثروة الأحساء فى عيونها المعدنية ومجاريها المائية ووفرة المياه بها . وقلة قليلة من منازل الهفوف هى التى لا تحتوى على بئر خاصة للماء الذى يمكن الحصول عليه من أعماق تتراوح بين اثنى عشر قدمًا وعشرين قدمًا ، ولكن نوعية الماء تتباين من بئر لأخرى ، ومن عمق إلى عمق ، ومياه آبار حى الكوت وحى النياثل عذبة ، فى حين إن مياه الجزء الأكبر من حى الرفاع وحى الصالحية بكامله لها مذاق مالح ، والمجارى المائية التى تعتمد عليها بساتين الواحتين ترتفع من عدد من الآبار والعيون التى تنتشر فى كل أنحاء الواحة الغربية ، ثم تتحول بعد ذلك إلى قنوات مكشوفة تتبع الانحدار الطبيعى للأرض من الغرب إلى الشرق . وانسياب هذه المياه دائم وكاف ، ولكن طرق الرى غير الرشيدة التى لا تخضع لأى نظام من نظم السيطرة ، والزراعة الكثيفة المركزة ، أضرت بالتربة التى تحكى آلامها وأوجاعها المستنقعات التى تنتشر هنا وهناك وغابات النخيل المتحلل . والمصادر التى تستقى منها مجارى الأحساء المائية وجودها على حد معرفتى ، يصل عددها إلى عشرة مصادر . صحيح أن هناك مصادر أخرى ولكنها فى معظمها قليلة الأهمية أو المنفعة ، فهى مجرد فتحات (أوعيون) صغيرة تنبثق من شقوق الصخور ، والموروث الشعبى أو الخيال يعزى تلك العيون ، إلى سقوط النجوم . وأشهر تلك العيون هى العين الكبريتية أو إن شئت فقل : عين نجم Ain Najm التى تقع فى تلة صغيرة تحمل ذلك الاسم ، وتقع إلى الشمال من مدينة المبرَّز .

وأعظم تلك العيون هى: (١) العين الحارة ، التى تندفع المياه منها ساخنة بشكل ملحوظ فى بحيرة كبيرة فاترة تكونت من مياه العين نفسها ، وتتفرع منها قنوات فى اتجاهات مختلفة نحو بيارات النخيل التى حول مدينة المبرَّز[٣٧] . وهذه البحيرة تقع على بعد مسافة ميل واحد من المدينة ، وتمتد إلى مسافة أربعمائة ياردة من حيث الطول أما عرضها فيقدر بحوالى مائة ياردة ، وعلى حواف تلك البحيرة توجد بيارات النخيل ، وبئر أو اثنتان ، وأطلال بعض المساكن . وهذه البحيرة جانب من جوانب الجمال فى تلك المنطقة ، ويقصدها الجنسان للاستحمام فى مائها ، والجنس اللطيف يقصد بحكم العرف والتقاليد الطرف البعيد من البحيرة حيث يوجد البوص المرتفع ، وتوفر ظلال بيارة النخيل نوعًا من الخصوصية ، والماء على الرغم من سخونته بالقرب من العين نفسها ، ودفئه فى بقية البحيرة ، فإنه عديم الطعم . ومبلغ علمى أنه لا تأثير له على المنظومة الإنسانية (٢) و (٣) عين الخدود The khudud وعين حقل Haqal التى تبعد الواحدة منهما عن الأخرى حوالى ربع ميل تقريبًا ضمن حزام النخيل الذى يمتد حوالى ميل ونصف الميل إلى الشرق من الهفوف ، والعينان تنبعان من القيعان الرملية صغيرة الحجم ، التى تخرج من كل واحدة منها قناة تتجه نحو الجنوب لتصل إلى نقطة تتحد عندها لتكون نهر السليسيل ، الذى ذكرنا بالفعل أنه واحد من المجارى المائية التى تروى الواحة الشرقية ؛ وفى البحيرات التى تحيط بها الحياة النباتية النمطية والتى تنتشر من حولها مناطق زراعة الأرز الواسعة تكون المياه دافئة ولها لون أخضر شفاف جميل كما أن جوانب تلك البحيرات مجوَّفة بفعل الحركة الدائمة للمياه المتزايدة . (٤) وبالقرب من عين الخدود تقع بركة صغيرة اسمها أم الجمال Umm al Jamal، وهى تروى قليلاً من حقول الأرز فى المنطقة المجاورة لها. (٥) وفى مكان بالقرب من مدينة المبرز تقع عين أم الخريسان Umm al Khuraisan التى تسير بحذاء الطريق المؤدى إلى الهفوف ، ويعتقد الناس أن مياه هذه العين لها خواص كيماوية عجيبة لا تأثير لها على الأصباغ الطبيعية ولكنها تؤثر تمامًا على الأصباغ الصناعية وتتلفها ، ويجرى اختبار بشوت الأحساء المصنوعة محليًا بغمرها فى مياه تلك العين ، ثم الحكم عليها من مياهها السوداء اللون ، ولابد أن مياه تلك العين قد أنقذت كثيرًا من المشترين من

الغش . (٦) و (٧) و(٨) عين المطيفى The Mutaifi ، وعين جليجلة Julaijila ، وعين الجوهرية Jauhariyya ، والاثنتان الأوليان من هذه العيون ترويان القريتين اللتين تحملان هذين الاسمين ، فى حين تروى العين الثالثة بيارات النخيل المعروفة باسم البطالية Battaliyya بالقرب من الهفوف . ولم أستطع زيارة أية عين من تلك العيون أو قرية من تلك القرى . وأخيرًا (٩) و (١٠) عين الوجاج وعين برابار Barabar، اللتان لم أزر منابعهما ، وتقعان على ما أعتقد فى مكان ما من الطرف الشمالى للواحة الغربية.

وكما سبق أن أوضحت فإن حى الكوت أو القلعة يشكل وحدة مستقلة ذاتيًا ، تكتمل فيها كل الضروريات ، كما تستطيع الاتصال بالخارج عن طريق البوابة الشمالية ، وتتصل ببقية المدينة عن طريق بوابة ضخمة الأبعاد فى جدار السور الذى يسير بحذاء سوق الخميس .

ومن داخل البوابة الأولى هناك برحة (منطقة مخيمات) واسعة ، يوجد على جانب من جانبيها وبالقرب من البوابة مبنى يشبه القلعة ، لا يستعمل حاليًا إلا مجرد سجن فقط . وعلى الجانب الآخر من تلك البرحة الواسعة يوجد الحجز الداخلى ، ويبدو أنه الحجز الخاص بالقلعة ، وهو عبارة عن قلعة واسعة سميكة الجدران يرتفع داخلها مسجد إبراهيم باشا ، الذى تساعد قبته العظيمة ومئذنته السامقة اللتان تجمعان بين السمات المهمة فى كل من العمارتين البيزنطية والإسلامية ، فى جعل ذلك المسجد أجمل المبانى فى وسط الجزيرة العربية وفى شرقها . كنا متشوقين تمامًا لفحص ودراسة ذلك المسجد الجميل عن قرب ومن الأحياء القريبة منه وليس من سطح المنزل الذى كنا نقيم فيه ، ومن بعض النقاط المفضلة الأخرى ، ولم نكن متشوقين فقط لزيارة المسجد ، وإنما كنا نود أيضًا أن نكوِّن فكرة جيدة عن المخزونات العسكرية فى ذلك المكان ، وهذا هو ما أكده لى فى لحظة من لحظات السهو خليل أفندى الذى أفاد أن هناك بالفعل مخزونات عسكرية فى ذلك المكان ، ومن بينها ، كما يبدو ، بعض مدافع الماكينة التى أهدتها السلطات البريطانية فى بلاد الرافدين إلى ابن سعود بمناسبة الزيارة التى قام بها إلى البصرة فى العام السابق ، أملاً فى أن يستعملها

ضد ابن الرشيد . ومع ذلك ، اتضح لنا على الفور بعد ذلك ، أن مضيفنا لم يكن متحمسًا تمامًا لإطلاعنا على كل مصادره العسكرية ، وعلى الرغم من أنه أجاب على اقتراحي التجريبي الأول بعبارة "ما يخالف" ، فإنني توصلت ، بعد أن اقترحت على خليل أفندي ترتيب زيارة لذلك المكان ، إلى أن رئيسه أصدر له أمرًا بعدم تشجيعي على القيام بتلك الزيارة ، إذا ما استطاع خليل أفندي أن يفعل ذلك . ومع ذلك ، فقد كنت مصممًا على مشاهدة الأسلحة ومشاهدة المسجد أيضًا من الداخل ، وفي النهاية انتصر إلحاحي وجرى تحديد موعد للقيام بالزيارة. وبينما كنا في طريقنا إلى القلعة توقفنا برهة في البرحة التي اقتطع جزء منها لاستعماله إصطبلاً مكشوفًا ، شاهدنا فيه حوالي عشرين أو أكثر من الخيول العربية ، البعض منها من خيول الدرجة الأولى ، وكلها مملوكة لمضيفنا . ثم تحركنا بعد ذلك إلى بوابة القلعة ، حيث استقبلنا سليمان الحريقي استقبالاً رسميًا ، وسليمان الحريقي هو القائد ، وكان معه جزء من الحامية المحلية ، يقدر بحوالي خمسين رجلاً كانوا يرتدون ملابس ناصعة البياض ومسلحين ببنادق حديثة جيدة . وإجمالي القوة العسكرية ، التي تأتمر بأمر عبد اللّه ابن جلوي لحماية المواقع التي من قبيل العقير ، والقطيف ، والجبيل ، والأحساء ذاتها لا يزيد عددها بأي حال من الأحوال عن ٥٠٠ أو ٦٠٠ رجل ، ربما يكون نصفهم متمركزًا في العاصمة . وتجول القائد بنا في أنحاء القلعة ، ومن أمام دارة القلعة كانت توجد على مسافات متساوية فتحات كثيرة ، وضع أمامها حوالي سبعة عشر مدفعًا حقيقيًا ، بدون العربات الحاملة لها ، وكانت كلها غير صالحة للاستعمال ، وفي الغرف الموجودة في الدور الأرضي كان يوجد مخزون من الذخيرة الحديثة وبعض المدافع الصالحة للاستعمال ، وهي بالتحديد مدافع الماكينة الأربعة التي جرى الحصول عليها مؤخرًا من الحكومة البريطانية ، وبعض المدافع التركية التي كان قد تم الاستيلاء عليها من آخر الحاميات التركية في هذه المنطقة . وكانت ثلاثة من بين هذه المدافع الأربعة لا تزال داخل صناديقها التي شحنت فيها ؛ ولم يكن قد تم إخراج سوى مدفع واحد منها لفحصه وربما أيضًا للتدرب عليه بين الحين والآخر ، غير أن المشكلة الحقيقية وخيبة الأمل والإحباط كانت تكمن في الحقيقة التي مفادها أنه من بين الرجال الأربعة

الذين تدربوا على إدارة مدافع الماكينة بواسطة السلطات البريطانية فى البصرة قبل عام مضى ، كان ثلاثة منهم قد توفوا بالفعل ، وأن الشخص الباقى ، الذى كان اسمه حسين[٣٨] ، كان قد نسى بالفعل كل ما سبق أن تعلمه . ونحن بدورنا لم نتأثر كثيراً بالاستعراض العسكرى فى الهفوف ، وهنا يجب أن أعترف أنه على الرغم من أننى ظننت ذات مرة أن عرب ابن سعود ربما يستطيعون الاستعانة بالمدافع إذا ما توفرت لهم ، فإن تجاربى وخبراتى اللاحقة مع جيش ابن سعود ، والنتائج المحزنة التى حققتها مدفعية شريف مكة خلال مختلف مراحل الاشتباكات العسكرية حول الخورمة Khurma جعلتنى أصدق أن الجيش العربى يكون أكثر فاعلية بدون المدفعية عنه فى وجودها . وبعد أن تفحصنا تسليح القلعة ، عدنا إلى القبة الكبيرة ، التى جرى تحويلها من الداخل إلى ثكنة عسكرية ؛ إذ كانت أرضيتها عارية تماماً باستثناء قليل من فراش الحامية ، وفى حين كانت تتدلى من السقف بعض السلاسل كان واضحاً أنها كانت تستعمل فى تعليق الثريات أو النجف . يضاف إلى ذلك أن زيارتى بلغت من الرسمية حداً كان من الصعب معه أن يسمحوا لى بقياس أبعاد تلك القبة ، وكان لابد أن أكتفى بتصوير القائد وكبار عبيده الذين ينفذون أوامره تنفيذاً أعمى وهم يقفون أمام ابيضاضها الذى يبهر الأبصار .